الرسالة والرسل في العقيدة الإسلامية

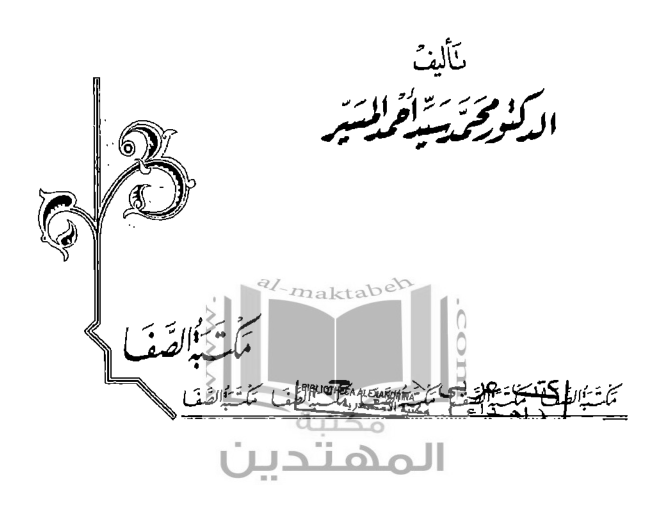
الدكتور
محمد سيد أحمد المسير



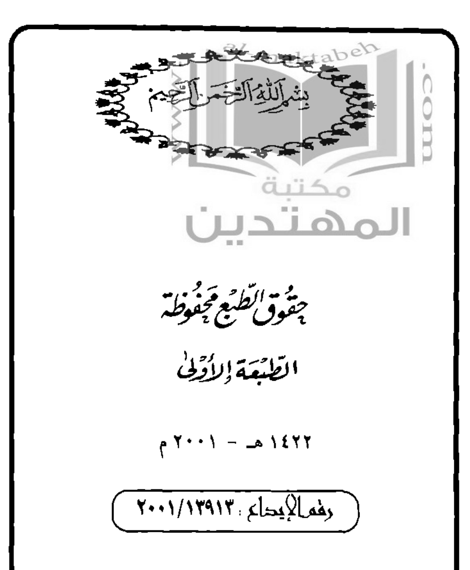
مكتبة الصفا

الرسالة والرسل
في
العقيدة الإسلامية

تأليف
الدكتور محمد سيد أحمد المسير







الطبعة الأولى

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

رقم الإيداع : ٢٠٠١/١٣٩١٣

مكتبة الصفا

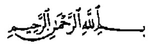
١٢٧ ميدان الأزهر القاهرة ت : ٥١٤٧٣٢٠

١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر ت : ٥١٤٧٩٧٤/٠١٠١٤٣١١١٤









المقدمة

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . .

أما بعد ..

فتواصل بنا مسيرة البحث العلمي لنقدم للقارئ الكريم كتابنا هذا «الرسالة والرسل» في سلسلة دراستنا عن العقيدة الإسلامية . .

ولا ريب أن الرسالة والنبوة تمثل التاريخ والحضارة والفكر للحياة الإنسانية . .

فقصة التاريخ هي مسيرة الأنبياء وقيادتهم لأقوامهم . .

وقصة الحضارة هي مسيرة المؤمنين الذين قاموا في دنيا الناس بالقسط في مواجهة طواغيت البشر . .

وقصة الفكر هي الصراع بين الحق والباطل في كل زمان ومكان . .

وقد جاء الكتاب ـ بتوفيق الله تعالى ـ على أربعة فصول:

الفصل الأول: الوحي الإلهي

وفيه مبحثان:

١ ـ الوحي لغة واصطلاحًا.

٢ ـ عصمة الوحي.

فإن عناية الله تعالى التي شملت الكائنات كلها، وأن رحمته التي وسعت كل شيء ـ لحقيق بها أن تتعهد الإنسان في أمر معاشه كما تعهدته في أمر خلقه، ولهذا كان الوحي الإلهي يقود خطى البشرية نحو النور والحق . .

وقد تكلمنا في هذا الفصل عن المعاني اللغوية والاصطلاح الشرعي لكلمة الوحي، وشرحنا أنواع الوحي التي تشير إليها الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (١).

(١) الشورى: ٥١ .

وأكدنا أن هناك ضمانًا إلهيًا للوحي يوضحه قول الله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ (١).

وناقشنا قصة الغرانيق التي وضعها بعض الملحدين ليقدحوا في عصمة الوحي، وشرحنا الآية الكريمة:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢).

الفصل الثاني: النبوة والرسالة.

تكلمنا عن حاجة البشر إلى الرسالات لكشف ما وراء الطبيعة، ووصل الدنيا بالآخرة، ودعوة الخلق إلى منهج الحق الذي يعلم من خلق..

وقدمنا تعريف النبي الذي استقرأه العلماء من تاريخ الأنبياء، والخصائص التي التقوا عليها..

وذهبنا إلى أن النبي والرسول كليهما يطلق على شخص واحد، فكل رسول نبي وكل نبي رسول، وعطف أحدهما على الآخر لا يدل على التغاير في الماصدق، وإنما يدل على اختلافهما في المفهوم، كاللفظين المترادفين (إنسان وبشر مثلاً) فإنهما يطلقان على شخص واحد هو محمد أو أحمد أو خديجة أو عائشة، ولكن لكل منهما وجه دلالة على معنى خاص، به كان الشخص إنسانًا أو بشرًا..

والأنبياء جميعًا لهم علو المكانة، وسمو المنزلة، ويمثلون الإنسان الكامل، فقد اختارهم الله واصطفاهم، ومع ذلك فإنهم يتفاضلون فيما بينهم، فأولو العزم من الرسل أفضل الأنبياء، ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ خير خلق الله أجمعين..

وقد أنزل الله تعالى على بعض المصطفين من عباده المرسلين كتبًا تتضمن المنهج الإلهي لإصلاح الحياة والأحياء، ونعرف منها صحف إبراهيم، وتوراة موسى، وزبور داود، وإنجيل عيسى، وقرآن محمد صلى الله عليهم جميعًا وسلم.

والإيمان بهذه الكتب جزء من قضية الإيمان العام الذي يتحقق به إسلام المسلم وإيمانه.

---

(١) الجن: ٢٦ ـ ٢٨.

(٢) الحج: ٥٢.

الفصل الثالث: المعجزة وخوارق العادات

وفيه مبحثان:

١ ـ المعجزة.

٢ ـ ألوان من خوارق العادات.

فشرحنا حكمة المعجزة ودلالتها اللغوية ومفهومها الاصطلاحي، وعرضنا نماذج لمعجزات أنبياء الله صالح، وموسى، وداود، وسليمان، وعيسى عليهم السلام..

وأكدنا أن لكل نبي معجزة يظهرها الله تعالى على يديه برهانًا قاطعًا على تصديق الله له وصدقه في دعوى النبوة، ولا يعقل بحال من الأحوال أن يتقدم إنسان إلى قومه مدعيًا النبوة ثم يجتمع الناس حوله بمجرد الدعوى..

فالمعجزة هي دليل النبوة، قد تنفرد، وقد تصحبها دلائل أخرى، ولا بديل عن المعجزة..

ثم سقنا الفروق بين الإرهاص والكرامة والمعونة والإهانة والاستدراج.

الفصل الرابع: مسيرة الأنبياء

وفيه مبحثان:

١ ـ عدد الأنبياء.

٢ ـ الزمان والمكان في تاريخ الأنبياء.

لقد بدأت المسيرة الطاهرة لأنبياء الله تعالى ورسله بآدم عليه السلام، فهو أول إنسان وأول نبي..

ثم بعث الله رسلاً إلى البشر حيثما كانوا، ولا ندري العدد الإجمالي لهؤلاء الرسل، لكن القرآن المجيد قص علينا بعض أسمائهم، وحصرهم العلماء في خمسة وعشرين نبيًا..

ونحن نرى أن هذا الحصر ليس دقيقًا لأن هناك شخصيات يدور حولها الخلاف كإدريس، وإلياس، وذي الكفل، كما أن هناك أسماء وشخصيات غير هؤلاء الخمسة والعشرين يشملهم الخلاف أيضًا، وهم:

العبد الصالح أو الخضر، وفتى موسى أو اليوشع، وعزير، ولقمان، وتبع..

وقد عرضنا لهذه الشخصيات المختلف فيها وذكرنا دلائل ما رجحناه.. وانتهينا إلى أن العدد القرآني المجمع على نبوته هو اثنان وعشرون نبيًا، وهم:

١ ـ آدم، ٢ ـ نوح، ٣ ـ هود، ٤ ـ صالح، ٥ ـ إبراهيم، ٦ ـ لوط، ٧ ـ إسماعيل، ٨ ـ إسحق، ٩ ـ يعقوب، ١٠ ـ يوسف، ١١ ـ شعيب، ١٢ ـ أيوب، ١٣ ـ موسى،

١٤ ـ هارون، ١٥ ـ داود، ١٦ ـ سليمان ١٧ ـ يونس، ١٨ ـ اليسع ، ١٩ ـ زكريا، ٢٠ ـ يحيى، ٢١ ـ عيسى، ٢٢ ـ محمد صلى الله عليهم جميعًا وسلم.

وجاء المبحث الأخير ليرتب هؤلاء الرسل ترتيبًا زمنيًا، ويرشد إلى مواطن بعثتهم من خلال النصوص الشرعية والوقائع التاريخية..

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾[1].

* * *

القاهرة في :

١٦ من جمادى الأولى سنة ١٤٢٢ هـ.

٦ / ٨ / ٢٠٠١ م.

أبو حذيفة

د. محمد سيد أحمد المسير

أستاذ العقيدة والفلسفة - كلية أصول الدين

جامعة الأزهر

(١) مريم: ٥٨.

الفصل الأول

الوحي الإلهي

المبحث الأول: الوحي لغة واصطلاحًا

المبحث الثاني: عصمة الوحي

المبحث الأول:

الوحي لغة واصطلاحًا

- المعاني اللغوية لكلمة الوحي.
- الاصطلاح الشرعي للوحي.
- أنواع الوحي.
- أوصاف ملك الوحي.

المعاني اللغوية لكلمة الوحي

جاء الوحي في اللغة بمعاني الكتابة والإشارة والرسالة والإلهام والكلام الخفي، يقال: وَحَى إليه الكلام يَحِيه وحيًا أي كلمه بكلام خفي، وكذلك أوحى.. ويقال: وحى وأوحى بمعنى كتب.

وأوحى أي أشار، والوحا والوحاء «يمد ويقصر» السرعة.. وهذه المعاني اللغوية استخدمها القرآن المجيد في تعبيراته الشريفة، وعلى سبيل المثال:

الإشارة

جاء الوحي بمعنى الإشارة في قوله تعالى: ﴿فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا﴾ (١) .

وهذا النص الكريم جاء في سياق قصة زكريا عليه السلام، وهو نبي من أنبياء بني إسرائيل، بلغ من الكبر عتيًا ولم ينجب، كفل مريم عليها السلام، ورأى ما أحاطها الله به من الكرامة، التي عبر عنها القرآن بقوله : ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ (٢) .

هنا تحرك قلب زكريا للولد، فقام من ليله، وهتف بدعاء ربه: ﴿قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا ④ وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا ⑤ يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا﴾ (٣) .

ولم يكن زكريا عليه السلام يخشى من انتقال ماله إلى عصبته، فذلك لا يليق بالأنبياء، ولم يكن زكريا ذا ثروة ، فقد جاء في صحيح البخاري أنه كان نجارًا يأكل من عمل يده، والحكم العام أن الأنبياء لا تورث فقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا صدقة**» .

وإنما طلب زكريا الولد ليرثه في النبوة والحكم وليسوس بني إسرائيل من بعده وفق منهج الله..

وعندما بشر زكريا عليه السلام بغلام اسمه يحيى في حال الكبر ومن زوجه العاقر

---

(١) مريم: ١١ .

(٢) آل عمران: ٣٧ .

(٣) مريم: ٤ ـ ٦ .

وقف متعجبًا وقد غمرته فرحة شديدة جعلته يتساءل في دهشة: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ فكان الجواب الإلهي الشافي: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾(١) .

ولمزيد من طمأنينة القلب وانشراح الصدر دعا الله أن يبين له علامة تدل على حمل امرأته تعجل له البشرى، فأرشده الله تعالى إلى آية عجيبة وهي أن يحتبس لسانه عن الكلام، لا يستطيعه ثلاثة أيام بلياليها ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ (٢) .

ومعنى «سويا» وأنت صحيح سليم ليس بك مرض ولا علة، فاحتباس الصوت حينئذ ليس لعاهة في اللسان أو مرض في الحنجرة، وإنما جعله الله علامة لزكريا يطمئن بها قلبه على حمل امرأته..

وحيث إن زكريا عليه السلام نبي يتحمل أمانة التبليغ ويؤدي رسالة الوحي إلى قومه فلم ينقطع عن هذه المهمة ولم يتوقف عن البلاغ:-

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (٣) .

فكان يشرف على قومه من مصلاه ويشير إليهم بتسبيح الله تعالى أول النهار وآخره.

فأوحى هنا بمعنى أشار إشارة خفيفة نظرًا لاحتباس صوته، وهذا ما أكدته الآية الأخرى في سورة آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (٤) .

فمعنى قوله «إلا رمزًا» أي إشارة.

وهكذا فإن القرآن المجيد استخدم كلمة الوحي هنا بأحد معانيها اللغوية وهو الإشارة الخفية..

* * *

(١) مريم: ٨ ـ ٩ .

(٢) مريم: ١٠.

(٣) مريم: ١١ .

(٤) آل عمران: ٤١ .

الإلهام الفطري

جاء الوحي في البيان القرآني بمعنى لغوي هو الإلهام الفطري، الذي فطر الله تعالى الكائنات عليه، وهيأها لممارسة وظائفها في هذا الكون، ويوضح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [1].

فالإيحاء هنا هو الإلهام والهداية وتوجيه النوع إلى اتخاذ أسباب بقائه وأدائه لعمله بفطرة وغريزة عجيبة..

وقد نبهت الآية إلى أن أماكن تجمع النحل إما أن تكون مطلقة لا يتعاهدها الإنسان، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ﴾، وإما أن تكون معدة يهيئها الإنسان كي يحكم سيطرته على الإنتاج، وهو ما يشير إليه قوله جل شأنه: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي ما يعده الناس للنحل من أماكن خاصة..

وقد اقتضت حكمة الله أن يتخير النحل بيوتًا له، فليس كل جبل أو شجر يصلح بيتًا له، لكن عندما يأكل يستوعب من كل الثمرات ليتحقق الغذاء والشفاء فيما يخرجه من عسل مصفى، قال تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ أي أن النحل يتبع الطرق التي ألهمه الله إياها لعمل العسل وتحويله بقدرة الله إلى شراب مختلف ألوانه..

أو المراد أن النحل يسير حيث شاء لتجميع الثمرات من الأودية والبراري والشواهق ثم يرجع من حيث أتى لا يحيد يمنة أو يسرة بل يصل إلى مكانه الأول دون أن يضل السبيل..

وهذه الأوامر الإيحائية للنحل في اتخاذ البيوت وأكل الثمرات وسلوك السبل إنما هي أوامر الإلهام الفطري، التي خلق الله النحل عليها ورتب وجودها على ممارسة هذه الوظائف.

وجاء الشفاء منكرًا في قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ للدلالة على أحد أمرين: التعظيم أوالتبعيض، بمعنى أن العسل دواء ناجع يحتوي على عناصر فعالة لدرء الأمراض ومقاومة الأدواء، أو أن فيه بعض الشفاء الخاص ببعض الأمراض..

---

(١) النحل: ٦٨ ـ ٦٩.

وجاءت السنة النبوية تحث على العلاج بعسل النحل، ففي صحيح البخاري أن رجلاً أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: أخي يشتكي بطنه، فقال: «اسقه عسلاً» ثم أتاه الثانية فقال: «اسقه عسلاً» ثم أتاه الثالثة فقال: «اسقه عسلاً» ثم أتاه فقال: فعلتُ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «صدق الله وكذب بطن أخيك، اسقه عسلاً» فسقاه فبرأ.

وهذا الحديث يرشدنا إلى قاعدة مهمة وهي أن الشفاء من المرض بإذن الله يتوقف على مقدار الدواء وكيفية تناوله وحال المرض والمريض ولذا أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الرجل بمعاودة شرب العسل مرات حتى تم الشفاء بأمر الله تعالى..

ومن الأحاديث أيضًا قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما في صحيح البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «الشفاء في ثلاثة، في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية نار، وأنهى أمتي عن الكي».

ومن الآثار المروية عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «إذا أراد أحدكم الشفاء فليكتب آية من كتاب الله في صحيفة وليغسلها بماء السماء وليأخذ من امرأته درهمًا عن طيب نفس منها فليشتر به عسلاً فليشربه كذلك فإنه شفاء».

ولعله استشف ذلك من وجوه، فالقرآن شفاء بنص قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [(١)] . وماء المطر مبارك بنص قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ [(٢)] . وعطية المرأة لزوجها فيها الهناء بنص قوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [(٣)] . والعسل شفاء بنص قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ .

وجاء ختام آية النحل دعوة للتأمل الراقي والتفكير السوي فقال جل شأنه : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ، والمعنى أن في الإيحاء للنحل وإلهامها في بيوتها ومآكلها وما تخرجه من بطونها ما يدفع الإنسان العاقل إلى إدراك سنة إلهية كونية عجيبة، تدل دلالة عميقة على قدرة الله وإبداع صنعه وحكمة تدبيره .



(١) الإسراء: ٨٢ .
(٢) ق : ٩ .
(٣) النساء: ٤ .

الإلهام الإلهي

من المعاني اللغوية التي استخدمها القرآن المجيد لكلمة الوحي: الإلهام الإلهي بمعنى ما يقذفه الله تعالى في قلوب عباده الأخيار مما يتعلق بمسالك البر واتجاهات الخير وصنائع المعروف، وقد جاء ذلك في قوله جل شأنه ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١) .

لقد ألقى الله في قلب أم موسى فعل هذه الأشياء، ووجهها هذه الوجهة عندما كان عيون فرعون يبحثون عن ذكور بني إسرائيل ليقتلوهم، وكانت القوابل تسجل أسماء الحوامل كي تتم متابعتهن إلى وقت المخاض، فإذا وضعت المرأة ذكرًا قتلوه، وإذا وضعت أنثى تركوها..

لكن الله تعالى أخفى على قوابل فرعون حمل أم موسى، ومضت شهورها دون أن يتعقبها أحد - كما ذكر ذلك المفسرون - فلما وضعت ألهمها الله جل شأنه أن تقوم بدورها الفطري في الإرضاع لوليدها، وأن تصنع له تابوتًا تشده بحبل إلى جذع شجرة أو شيء ما ثم تلقيه في اليم إذا ما فاجأها أحد من زبانية فرعون، ويبدو أنها كانت تعيش على شاطئ النيل..

وذات يوم دخل عليها بعض هؤلاء الزبانية يبحثون عن المواليد فأسرعت بإلقاء موسى عليه السلام في نهر النيل، ونسيت أن تشده بوثاقه الذي أعدته لذلك فجرفه الماء وسار به حتى وقف أمام قصر فرعون..

ورغم شدة الموقف وقسوته فإن الله جل شأنه قد ثبت أم موسى وجعل الأمل يراودها في نجاته بل إنها توقعت له مستقبلاً كريمًا، وقد جمعت الآية في سياقها البياني أمرين ونهيين وبشارتين:

فالأمران هما: أرضعيه وألقيه، والنهيان هما: لا تخافي ولا تحزني، والبشارتان هما: إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين.

- والإلهام الإلهي هو منحة لكل مؤمن تقي نقي، وهو الفرقان في قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢) .

---

(١) القصص: ٧ .
(٢) الأنفال: ٢٩ .

وهو النور في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١) .

وهو تنزل الملائكة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٢) .

- وقد كان لعمر بن الخطاب رضي الله عنه منزلة كبيرة وحظ وافر في هذا الإلهام حتى إنه وافق الوحي في مواقف متعددة، ففي صحيح البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال عمر: وافقت ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله: لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن، فنزلت آية الحجاب، واجتمع على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نساؤه في الغَيْرة، فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله خيرًا منكن، فنزلت كذلك».

ولقد وصف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمر بأنه محدَّث ومكلَّم بمعنى أن الملائكة تحدثه وتكلمه، ففي صحيح البخاري بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يُكلَّمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر»** .

وفي رواية: **«لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدَّثون، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر»** .

- وللتفريق بين إلهام الملائكة ونزغات الشياطين لابد أن يكون الحكم حينئذ لأصول الشرع وقواعد الدين ومسلمات الفطرة، فما وافقها كان مقبولاً وما خالفها كان مردودًا، وهناك حديث شريف يوضح فيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا المعنى فيقول: **«إن للشيطان لمة وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد منكم ذلك فليعلم أنه من الله، وليحمد الله على ذلك، ومن وجد الأخرى فليستعذ بالله من الشيطان ثم قرأ ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا﴾(٣) »** .رواه الترمذي والنسائي وأخرجه ابن حبان، وقال الترمذي: حسن غريب.

---

(١) الحديد: ٢٨ . (٢) فصلت: ٣٠ .

(٣) البقرة: ٢٦٨ .

الوسوسة

من المعاني اللغوية التي جاء بها لفظ الوحي في البيان القرآني: الوسوسة بمعنى إلقاء الشيطان في النفس، وخداع الإنسان عن الحق والخير..

ومن مواضع ذلك الاستعمال قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ (١) .

فالشيطان هو المتمرد الطاغية سواء كان من الجن أو الإنس، فكلاهما يقف بالمرصاد لكل دعوة حق، يلقي الشبهة ويثير الفتنة ويصد عن سبيل الله . .

والتقاء شياطين الإنس مع شياطين الجن على هذا الهدف إنما يكون بزخرف القول الذي يغتر به سامعه من الجهلاء وأغبياء الفكر وعمى البصيرة.. فيلقون في النفس ما يصرف عن الخير والبر والمعروف، وما ينفر من الحق والقيم والفضيلة..

وقد اقتضت حكمة الله أن تكون العاقبة للمؤمنين وأن يتخاذل الشياطين وتزول مكائدهم وتظل كلمة الله هي العليا، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٢) .

فالوحي وحيان: وحي إلهي، ووحي شيطاني، والنسخ هو الإزالة، والإحكام هو التثبيت، وأمنية كل نبي أن تنتشر دعوة الحق، وتسود رسالة الله ويعم نور الوحي، ومهما حاول شياطين الإنس والجن الحيلولة دون هذا الانتشار وتلك السيادة، فإن الله ناصر أنبيائه وممكن لأوليائه ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣) .

- وقد حذر القرآن كثيراً من عداوة الشيطان الإنسي والجني، ونزلت سورة بأجمعها تسمى سورة الناس ختم بها المصحف الشريف، تدعو المسلم إلى اللجوء إلى الله والاحتماء به سبحانه كي يمنحه الحصانة ضد هؤلاء المرجفين الذين يزينون القبيح ويخدعون بالباطل،

---

(١) الأنعام: ١١٢ . (٢) الحج: ٥٢ ـ ٥٤ .
(٣) التوبة: ٣٢ .

وينادون بالفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝﴾ (١) .

وقد ذكرت السورة ثلاث صفات جمعت الكمال الإلهي هي الربوبية والملك والإلهية، فالكائنات كلها مخلوقة لله، واقعة في قبضته، لا تخرج عن إرادته ومشيئته..

والوسواس الخناس هو الموسوس الخفي، وخفاؤه إما عن العين والبصر، كما في الشيطان الجني، أو عن العقل والبصيرة كما في الشيطان الإنسي والجني معًا، فهم يضللون الناس ويخدعونهم ويجادلون بالباطل.. فكل القضايا الفاسدة والأفكار الهدامة إنما هي من وحي الشيطان، وإن الدفاع عنها والتشبث بها إنما هو جدل شيطاني، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ۝ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (٢) .

- ومن نماذج الجدل الشيطاني ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (٣) .

وقد وردت هذه الآية الكريمة في سياق النهي عن أكل الميتة وما ذبح لغير الله، وشأن المؤمن أن يطيع الله فيما أمر ويجتنب ما نهى، ولكن الشياطين يوسوسون إلى المشركين ومن على شاكلتهم، ويقذفون في عقولهم وقلوبهم ما يزين القبح ويدفع إلى الضلال المبين ويخدعونهم بجدل باطل زاعمين أن أكل الميتة يستوي مع أكل الذبيحة، وقد قالوا للمسلمين على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أتأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله؟! يعنون الذبيحة في العبارة الأولى والميتة في الثانية، مع أن الفرق واضح وكبير، فالذبح إراقة للدماء بوسيلة خاصة وكيفية معينة يتحقق بها الخلاص من الدم الفاسد ومن الجراثيم والميكروبات التي تعيش في مجرى الدم، أما الميتة فهي لم تتخلص من دمها الذي يجمد في العروق بما يحمله من أسباب الأمراض والأوبئة، وقد ربط الله تعالى الحل بالطيبات، والحرمة بالخبائث، فقال جل شأنه: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ (٤) وقال جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الناس.
(٢) الحج: ٣، ٤.
(٣) الأنعام: ١٢١ .
(٤) الأعراف: ١٥٧ .
(٥) المائدة: ٨٧، ٨٨ .

الاصطفاء الإلهي

تقوم قضية الوحي والنبوة على مسألة مهمة هي مسألة الاصطفاء الإلهي بمعنى أن الله تعالى يصطفي ويختار ما شاء من خلقه لما يشاء، ومسألة الاصطفاء هي مظهر الكمال الإلهي في العلم والإرادة والقدرة، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١) .

إن هناك اصطفاءات كثيرة في خلق الله تعالى. .

لقد خلق الله تعالى الزمان واصطفى من أشهره الأشهر الحرم وهي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب. . واصطفى من أيامه يوم الجمعة ويوم عرفة وليلة القدر . .

وخلق الله تعالى المكان واصطفى منه المساجد ترفع وتعظم، واصطفى من المساجد البيت الحرام وجعله مثابة للناس وأمنًا. .

وعلى هذه الوتيرة كان الاصطفاء من الملائكة والناس، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٢) .

حكمة الاصطفاء للنبوة:

إن عناية الله التي شملت الكائنات كلها، ورحمته التي وسعت كل شيء لحقيق بها أن تتعهد الإنسان في أمر معاشه كما تعهدته في أمر خلقه.

ولا ريب أن الحياة تحتاج إلى قانون، ولا بد أن يصدر هذا القانون من جهة عليا حتى يحظى بالقبول والتنفيذ. .

وإن الإنسان كفرد، والإنسان كمجتمع ـ قاصر عن أن يحيط بكل ما ينفعه، ولا يملك قوة الإلزام الحقيقية التي تحمي سلطة القانون. .

وليس فوق الإنسان إلا الله، وليس فوق الكائنات إلا رب العالمين، وليس فوق الملك والملكوت إلا الواحد القهار. . قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)﴾ (٣) .

فالناس في حاجة إلى قانون إلهي ينظم أمر معاشهم. .

ثم إن الإنسان لم يخلق للعدم وإنما خلق للبقاء لكنه يمر بمراحل من الحياة، فمرة لم يكن شيئًا مذكورًا، ومرة في ظلمات ثلاث، ومرة على ظهر هذه الأرض إلى أجل مسمى،

(١) القصص: ٦٨ . (٢) الحج: ٧٥ .
(٣) المائدة: ١٢٠ .

ومرة يستودع في باطن الأرض، ومرة يكون المنتهى إلى الله.. وصدق الله حيث يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ﴾ (١) .

هنا يأتي تساؤل مهم هو: ما السبيل إلى حسن لقاء الله، وسعادة الآخرة طالما أن هذه هي النهاية التي لا مفر منها ولا محيد عنها؟ !

إن التلقي عن الله في أمر المعاش والمعاد هو الحل الأول والأخير لمشكلة الإنسان، لكن كيف التلقي؟

هل كل إنسان مهيأ بفطرته أو اكتسابه لأن يستمع إلى الملأ الأعلى، ويأخذ عن العلي الأعلى؟

إن كل الدلائل والوقائع تمنع هذا العموم، فالعقل الإنساني على درجات، والعلم البشري على تفاوت، فالبعض -إذن- من الناس هو الذي يمكنه أن يتلقى عن الله، وتتوارد تساؤلات: من يكون هذا البعض؟ وما مؤهلات هذا التلقي؟ ومن يضع هذه المؤهلات؟ ومن يحكم باستحقاقها؟

إن الجواب لا ننتظره من البشر، وإلا فسينقلب الأمر، ويحكم المخلوق على الخالق، ويسقط المنطق الصحيح..

إن الاصطفاء الإلهي هو الأمر المعقول في هذا الجانب، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ (٢) .

فالاصطفاء لا يخضع لإرادة البشر ورغباتهم، ولكن الله سبحانه يختار للرسالة أكرم الناس وأصلحهم وأزكاهم ومن هو بها جدير وعليها أمين.

- وقد أكد القرآن المجيد قضية الاصطفاء تأكيدًا قويًا وجعل مردها إلى الله وحده في آيات كثيرة، فقال جل شأنه: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) .

فليس البشر كلهم مؤهلين للاطلاع على الغيب وتحمل أمانة التبليغ عن الله، ولكن الله جل شأنه يصطفي ويختار من البشر من هو أهل لهذا الشرف العظيم وتلك المسئولية الجسيمة، فيجب التصديق واليقين بقدرة الله على الاصطفاء، وبالرسالة لمن اجتباهم واختارهم لهذه الأمانة الكبرى..

(١) الانشقاق: ٦ .
(٢) الأنعام: ١٢٤ .
(٣) آل عمران: ١٧٩ .

الاصطلاح الشرعي للوحي

يمكن أن نقدم مفهومًا ميسرًا للوحي في الاصطلاح الشرعي هكذا:

إن الوحي صلة بين الرب تبارك وتعالى ومن يصطفيه من خلقه ليتحمل أمانة التبليغ عن الخالق إلى الخلق..

هذه الصلة يصحبها علم ضروري بمصدرها، ويصاحبها ظواهر نفسية وبدنية للشخص المصطفى، ويتبعها آثار توجيهية يعلنها المصطفى لمن حوله..

ولتوضيح هذا المصطلح نقول: إنه يقوم على أسس هي:

١ ـ الاصطفاء من الله تعالى.

٢ ـ العلم الضروري بمصدر هذا الوحي.

٣ ـ الحال النفسية والبدنية المناسبة للوحي.

٤ ـ الرسالة التي يتحملها المصطفى لقومه.

وهذه الأسس واضحة تمامًا فيما حكاه القرآن المجيد عن موقف اصطفاء موسى عليه السلام للنبوة والرسالة، ولنقرأ قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (٩) إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ (١) .

لقد خرج موسى عليه السلام ومعه زوجه من مدين في سيناء قاصدًا مصر بعدما مكث عشر سنين عند الشيخ الكبير والد زوجه من أهل مدين، فلم يعرف معالم الطريق، ونزل بين الشعاب والجبال وكان الجو شاتيًا والسحاب كثيفًا والضباب شديدًا.. ودل على ذلك قوله تعالى في آية أخرى ﴿لعلكم تصطلون﴾ أي تستدفئون من البرد .

وبينما هو في هذه الحال المضطربة رأى نارًا على بعد، فتجدد الأمل لديه فقد ينتفع بالنار أويجد عندها من يرشده إلى الطريق ..

فلما اقترب كانت المفاجأة الكبرى وهي اصطفاء الله تعالى له، وقد تم ذلك بتمهيد بدني ونفسي يظهر في خلع النعلين لطهارة المكان والتذكير بالألوهية المقدسة المستحقة للعبادة الخالصة والتنبيه على المصير الإنساني العام الواصل بالإنسان إلى لقاء الله والحساب والجزاء، قال تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ (٢) .

---

(١) طه : ٩ ـ ١٣ .
(٢) طه : ١٤ ـ ١٦ .

- وأمام عظم المفاجأة وفور وقوعها كان التحبيب والتشويق والبرهان حتى يتأكد موسى أن الله اصطفاه وجعله نبيًا ورسولاً، فبدأ الإيناس للقلب الوجل بقوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ (١).

وما كاد موسى عليه السلام يلتقط أنفاسه ويستعيد توازنه النفسي والعقلي والبدني حتى وقعت المفاجأة الثانية: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ (٢).

هذا برهان قدمه المولى سبحانه وتعالى لموسى يؤكد قضية الاصطفاء له، ويورثه علمًا ضروريًا بمصدر الوحي إليه وأنه من الله القوي القاهر.

لقد تجلى البرهان في انقلاب العصا حية وإخراج اليد بيضاء، وقعت هاتان المعجزتان متواليتين في موقف الاصطفاء للوحي..

لقد انقلبت عصا موسى حية حقيقة تسعى وتتحرك حركة سريعة وتهتز كأنها جان، فولى موسى مدبرًا مذعورًا، فإذا بالصوت العلوي القدسي يناديه: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ (٣).

وأعقب ذلك معجزة أخرى أن يضع موسى عليه السلام يده تحت عضده وهي سوداء، فإذا أخرجها تلألأت كأنها فلقة القمر، وقد وقعت المعجزتان أمام موسى عليه السلام ثم عاد كل شيء إلى سيرته الأولى وطبيعته السابقة، وتأكد موسى بما لا يدع مجالاً للشك أن هذا الوحي مصدره الله العزيز الحكيم..

- ثم كانت المفاجأة الثالثة وهي التكليف بالبلاغ إلى فرعون الذي فر منه موسى من قبل، ولم يعد أمام موسى عليه السلام إلا الاستجابة للتكليف والضراعة إلى الله بالتيسير، قال تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ (٤).

---

(١) طه: ١٧ - ١٨.
(٢) طه: ١٩ - ٢٣.
(٣) طه: ٢١.
(٤) طه: ٢٤ - ٣٦.

وقد عرّف ابن خلدون الوحي فقال:

استغراق في لقاء الملك الروحاني بإدراك الأنبياء المناسب لهم، الخارج عن مدارك البشر بالكلية، ثم يتنزل إلى المدارك البشرية .. كل ذلك في لحظة واحدة بل في أقرب من لمح البصر»[١] .

يريد ابن خلدون أن يقول إن الوحي يملك على النبي قلبه وقالبه، ويتجمع الشعور كله، ويوجهه نحو هذا اللقاء الفريد بين الإنسان المصطفى والملك الروحاني، ويكون للنبي في هذه الحال إدارك خاص ووسيلة معرفة غير ما ألفه البشر من الحواس والعقل، ثم تحصل مرحلة عبور للوحي من حالته الروحية إلى حالة حسية وعقلية يدركها النبي ويبلغها للبشر في صورة أمر أو نهي أوخبر .. إلخ ..

ولعل ابن خلدون يعبر عن نوع مهم وشائع من أنواع الوحي وهو لقاء الملك، وإلا فللوحي صور متعددة جمعتها الآية الكريمة «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم»[٢] .

فالتغيرات النفسية والبدنية المناسبة للوحي أو الاستغراق في لقاء الملك الرحاني تزداد وضوحًا في حديث بدء الوحي لسيدنا محمد ﷺ ، ففي صحيح البخاري بسنده عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت:

أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء.

فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجَهْد ثم أرسلني.

فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني.

فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني.

فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم.

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

---

(١) مقدمة ابن خلدون صـ ٥٨ المطبعة الأزهرية سنة ١٣١١هـ

(٢) الشورى : ٥١.

فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوع فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي . .».

وهذه المشقة وتلك الرجفة ظلت مصاحبة للوحي بدرجات مختلفة على مدى الرسالة فكانت في آخر العهد أيسر من أوله . . ففي صحيح البخاري أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟

فقال رسول الله ﷺ:

أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيُفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول، قالت عائشة ﵂: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا».

ويقول عبادة بن الصامت: كان نبي الله عليه الصلاة والسلام إذا أنزل عليه كرب لذلك وتربّد وجهه» أي تغير . .



أنواع الوحي

للوحي صور وأنواع جمعتها الآية الكريمة: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

فتحدث الآية هنا عن الوحي بمعنى التلقي عن الله تعالى مطلقًا سواء كان للأنبياء أو للأولياء أو لغيرهم..

هذا التلقي له صور متعددة:

الأولى : قوله تعالى: (إلا وحيًا)

والمقصود بالوحي هنا الإلقاء في القلب بكلام خفي يدرك بسرعة وهو المسمى إلهامًا، وقد يقع يقظة وقد يقع منامًا ..

فالإلقاء في اليقظة عبَّر عنه قوله جل شأنه: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢) .

وقد شرحنا هذا الإلهام فيما سبق.

والإلقاء في النوم هو المعبر عنه بالرؤيا الصالحة، وقد حكاها القرآن المجيد للأنبياء وغيرهم، ومثال ما حكاه القرآن للأنبياء قوله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ (٣) .

لقد رزق الله إبراهيم على كبره ولدًا هو إسماعيل، ولما فرح به أمره الله تعالى أن يودعه في واد غير ذي زرع بمكة المكرمة على مسافة بعيدة من أرض الشام، واستجاب إبراهيم عليه السلام ولبى النداء، وكان يتعهد ولده بالزيارة على فترات، ولما شب إسماعيل وبلغ مبلغ السعي والعمل رأى إبراهيم عليه السلام رؤيا عجيبة صارح بها ولده ﴿ قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك ﴾ .

فما كان من الابن الصالح إلا أن استجاب لدعوة أبيه واحتسب ذلك عند الله.

- وإنما دار هذا الحوار بين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ليكون الأمر أهون على الوالد فلا يفاجئ ولده ولكي يتعاونا على الصبر في طاعة الله ..

---

(١) الشورى: ٥١. (٢) القصص: ٧ .
(٣) الصافات: ١٠١ - ١٠٧ .

واتخذ كل من الوالد والولد موقف التسليم المطلق، وبدأت خطوات التنفيذ الأمين، فأكب إبراهيم ولده على وجهه ليذبحه من قفاه فلا تتلاقى الأعين ولا يتقدم الحنان الفطري على الحب الإلهي..

هنا تتنزل رحمة الله ويأتي النداء العلوي القدسي: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (١)

لقد نجح إبراهيم عليه السلام في الامتحان وفاز هو وولده إسماعيل برضا الرحمن، وأنزل الله كبشًا من السماء فداء لإسماعيل وتعبيرًا للرؤيا، وصار الفداء والتضحية في يوم النحر سنَّة شرعية إلى يوم الدين.

- ومثال الرؤيا الصالحة لغير الأنبياء ما حكاه القرآن المجيد عن رؤيا ملك مصر على عهد يوسف الصديق، ولم يكن الملك يومئذ نبيًا ولا وليًا.. قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (٢).

وعرضت الرؤيا على يوسف الصديق فعبرها لهم بخطة اقتصادية تنفذ على مدى خمسة عشر عامًا: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ (٣).

- وحاصل تأويله أنه فسر البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين يكثر خيرها وزرعها، وأرشدهم إلى طريقة للتخزين فريدة، وهي أن تترك الغلال في سنابلها حتى لا ينال منها السوس، وهي نصيحة من يوسف عليه السلام خارجة عن تعبير الرؤيا.

ثم فسر البقرات العجاف والسنبلات اليابسات بسنين جدباء يشتد فيها القحط وتأتي على المخزون من الغلال.

ثم بشرهم زيادة على تعبير الرؤيا أنه سيأتي من بعد ذلك عام فرج ورجاء فيه يغاث الناس (من الغيث وهو المطر أو من الغوث وهو الفرج)، وفيه يعصرون أي يتخذون الزيوت والدهون لكثرة الأعناب والزيتون وغيرهما.

وبهذا يتبين النوع الأول من الوحي، وهو الإلهام الإلهي، وهو يقع يقظة ومنامًا، وهو يحصل للأنبياء ولغيرهم، إلا أن الفرق بين إلهام الأنبياء وإلهام غيرهم أن لدى الأنبياء يقينًا بمصدره الإلهي..

---

(١) الصافات: ١٠٤. (٢) يوسف: ٤٣. (٣) يوسف: ٤٧ - ٤٩.

الصورة الثانية من الوحي: من وراء حجاب

هذه الصورة تعني أن كلام الله تعالى يصل مسموعًا إلى النبي دون رؤية للذات العلية، فالنبي يسمع مباشرة دون واسطة . .

وقد قص القرآن المجيد نموذجًا لذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [١] .

لقد حدد الله تعالى لموسى عليه السلام زمانًا ومكانًا وقعت فيه هذه المناجاة القدسية التي تضمنت حوارًا حول رؤية الذات الإلهية . .

لقد سأل موسى عليه السلام الرؤية لنفسه أو لقومه ـ على خلاف بين أهل السنة والمعتزلة ـ ومنع موسى عليه السلام الرؤية، وهذا المنع لعدم إرادة الله وقوعها لموسى فقط عند أهل السنة، أو لاستحالتها عند المعتزلة . .

ثم علق الله تعالى الرؤية على استقرار الجبل، لكن الجبل بمجرد التجلي الإلهي صار دكًا وتفرقت أجزاؤه . .

ويرى أهل السنة أن الرؤية جائزة لأنها علقت على أمر جائز وهو استقرار الجبل بعد حركته واضطرابه، ويرى المعتزلة أن الرؤية مستحيلة لأنها علقت على مستحيل وهو استقرار الجبل حال حركته فيكون جمعًا بين النقيضين وهو محال.

وأيًا ما كان فإن موسى عليه السلام كلمه ربه وتلقى وحيه من وراء حجاب، فسمع الكلام الموحى به ولم تتحقق له رؤية الذات الإلهية.

- وقد وقعت هذه الصورة من الوحي لسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة الإسراء والمعراج حيث فرضت الصلاة على الأمة الإسلامية من خلال مناجاة علوية قدسية ناجى فيها سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ربه تبارك وتعالى.

ـ ولأهل السنة رأيان في تفسير صدر سورة النجم ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾ [٢] .

---

(١) الأعراف: ١٤٣ ـ ١٤٤ .   (٢) النجم: ١ ـ ١٤.

فهناك اتجاه قوي يرى أن هذه الآيات تتعلق برؤية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لجبريل في صورته الملائكية، فقد رآه مرتين، الأولى عقب اللقاء الأول في غار حراء بعدما فتر الوحي مدة زمنية، تشوق فيها الرسول لمعاودة اللقاء فرأى جبريل سادًا عظم خلقه ما بين السماء والأرض، له ستمائة جناح، والأخرى ليلة الإسراء والمعراج عند سدرة المنتهى.

وعلى رأس هذا الاتجاه السيدة عائشة رضي الله عنها، فقد قالت: مَن زعم أن محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، وأخبرت أنها أول هذه الأمة سأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن معنى قوله تعالى: ﴿ولقد رآه بالأفق المبين﴾ وقوله جل شانه ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ فقال لها: **«إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطًا من السماء، سادًا عظم خلقه ما بين السماء والأرض»** ثم استدلت السيدة عائشة رضي الله عنها على رأيها بقوله سبحانه: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾[1] ، وبقوله جل شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[2] .

والحديث بسنده موجود في صحيح مسلم.

والاتجاه الآخر يتقدمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يثبت رؤية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لربه، ويفسر آيات سورة النجم على أنها رؤية لله تعالى.

وقد اختلفت الروايات في آلة الرؤية؟ فقيل: إنه رآه بعينه، وقيل: إنه رآه بقلبه وفؤاده، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله تعالى اختص موسى بالكلام، وإبراهيم بالخلة، ومحمد بالرؤية.

- وليس في المسألة قاطع ولا نص صريح، والأرجح هو رأي السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

وفي صحيح الحديث أن أبا ذر سأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هل رأيت ربك؟ فقال: «نور، أنَّى أراه» ، وقد فسر النور بالحجاب في حديث آخر «حجابه النور» فيكون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأى الحجاب الذي هو النور، وقد منعه ذلك من رؤية الرب عز وجل . .

* * *

---

(١) الأنعام: ١٠٣

(٢) ـ الشورى ٥١ .

الصورة الثالثة من الوحي: «أو يرسل رسولاً»

رسول الوحي هو الملك جبريل عليه السلام، فهو المخصص للتبليغ عن الله، والسفارة بينه سبحانه ورسله وأنبيائه..

وقد عبّر القرآن المجيد عن ملك الوحي بتعبيرات متعددة، فذكره بالاسم العلم في بعضها وذكره بأوصاف تليق بمهمته المقدسة في البعض الآخر، وقد جاء الاسم العلم في مواضع هي:

- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾(١).

وجاء في أسباب النزول أن اليهود قالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنه ليس نبي من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة والوحي فمن صاحبك حتى نتابعك؟ قال عليه الصلاة والسلام: «جبريل»، قالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال، ذاك عدونا، لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالقطر وبالرحمة تابعناك.

فجاء هذا النص الكريم في سياق الرد على اليهود وبيان زيف اعتقادهم ومزاعمهم الفاسدة حول الله والملائكة والرسل.

- وقوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (٢).

وقد وردت هذه الآية في قصة تحريم الرسول العسل على نفسه بعد أن تواطأت عليه زوجتاه السيدة عائشة والسيدة حفصة غيرة منهما على السيدة زينب بنت جحش، فأطلعه الله تعالى على هذا التواطؤ وعاتبه عتاب الحبيب لحبيبه ودعاه إلى معاودة ما تطيب إليه نفسه دون نظر إلى هذا التواطؤ، وهدد القرآن هاتين الزوجتين بأن الله تعالى يتولى رسوله بالرعاية والعناية والنصرة وأن الملأ الأعلى يتقدمهم جبريل في معية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حفظًا وتأييدًا وكذلك المؤمنون الصالحون..

وللعلماء تفسيرات وتحليلات لاسم جبريل، فيقول الإمام السهيلي:

«اسم جبريل سرياني، ومعناه عبد الرحمن أو عبد العزيز، هكذا جاء عن ابن عباس موقوفًا ومرفوعًا أيضًا ، والوقف أصله.

---

(١) البقرة: ٩٧ ـ ٩٨ .

(٢) التحريم: ٤ .

وأكثر الناس على أن آخر الاسم منه هو اسم الله، وهو «إيل».

وكان شيخنا رحمه الله يذهب مذهب طائفة من أهل العلم في أن هذه الأسماء إضافتها مقلوبة، وكذلك الإضافة في كلام العجم، يقولون في غلام زيد: زيد غلام . .

فعلى هذا يكون «إيل» عبارة عن العبد، ويكون أول الاسم من أسماء الله تعالى، ألا ترى كيف قال في حديث ابن عباس: جبريل وميكائيل كما تقول: عبد الله، وعبد الرحمن ألا ترى أن لفظ « عبد» يتكرر بلفظ واحد، والأسماء ألفاظها مختلفة ؟! .

ثم قال الإمام السهيلي: واتفق في اسم جبريل عليه السلام أنه موافق من جهة العربية لمعناه وإن كان أعجميًا، فإن الجبر هو إصلاح ما وَهَى، وجبريل موكل بالوحي، وفي الوحي إصلاح ما فسد، وجبر ما وهى من الدين.

ولم يكن معروفًا بمكة ولا بأرض العرب، فلما أخبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خديجة به، انطلقت تسأل من عنده علم من الكتاب كعداس، وبحيرا الراهب، فقال لها: قدوس . . قدوس . . أنَّى لهذا الاسم أن يذكر في هذه البلاد ؟!».

هذا وقد جاءت أحاديث كثيرة فيها ذكر اسم جبريل عليه السلام، منها الحديث المشهور الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بشأن السائل الذي جلس إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخذ يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأشراطها ثم انطلق، فقال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عقب ذلك: «**فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**» .

وفي حديث آخر صحيح قال عليه الصلاة والسلام: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**» .

ومن ذلك أيضًا قوله عليه الصلاة والسلام: «**إذا أحب الله تعالى العبد نادى جبريل: إن الله تعالى يحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**» .

* * *

أوصاف ملك الوحي

وصف القرآن المجيد ملك الوحي جبريل عليه السلام بأوصاف تليق بمهمته المقدسة، وتتناسب مع مكانته في الملأ الأعلى، وتتضح هذه الأوصاف من خلال هذه النصوص القرآنية التالية:

١ ـ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾(١) .

لقد مضى التشريع الإلهي على سنة النسخ لحكمة بالغة، فالله تعالى ينسخ شريعة بشريعة، وينسخ حكمًا بحكم، فشريعة الإسلام نسخت ما سبقها من شرائع ولا يعبد الله تعالى الآن إلا بما شرع في الرسالة الخاتمة . .

ـ واتجاه القِبْلَة في الصلاة إلى الكعبة المشرفة نسخ استقبال بيت المقدس، وتحريم الخمر تحريمًا قاطعًا نسخ إباحتها في صدر الإسلام، والصلوات الخمس ليلة الإسراء والمعراج نسخت صلاة بالغداة وصلاة بالعشي قبل ذلك . .

لكن المشركين يفترون الكذب ويصفون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالسحر والكهانة والجنون، ويظنون أن التشريع من اختراع محمد ونسج خياله، مع أن الحقيقة التي لا تقبل مراء هي أن القرآن نزل به جبريل عليه السلام منجمًا ومفرقًا على مدى ثلاث وعشرين سنة حتى يتجدد لقاء الرسول بالوحي ويستشعر المؤمنون صلة الملأ الأعلى، ويستظهر الناس أحكام التشريع ويترقبون فصل الخطاب لما شجر بينهم . .

– والقدس ـ بسكون الدال وضمها ـ الطهر، وإضافة الروح إلى القدس من إضافة الموصوف إلى صفته، كما يقال حاتم الجواد، وزيد العلم، وسعاد الجمال، والمراد الروح المقدس كما يراد حاتم الجواد، وزيد العالم، وسعاد الجميلة . .

٢ ـ قال الله جل شأنه: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (٢) .

والمعنى أن الله تعالى أرسل إلى مريم البتول جبريل عليه السلام ليطمئن فؤادها، ويعلمها مسبقًا بما اختصها الله به من الكرامة بولادة عيسى عليه السلام دون أن يمسها بشر.

---

(١) النحل: ١٠١ ـ ١٠٢ .

(٢) مريم: ١٧ .

فتمثل لها جبريل بشرًا سويًا لتأنس بحديثه، إذ لو رأته على صورته الملائكية لنالها الفزع الأكبر..

- والإضافة في قوله « روحنا» للتشريف كما هي في قوله تعالى ﴿هذه ناقة الله﴾[1] وقوله ﴿وطهر بيتي للطائفين﴾[2] وقوله ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه﴾[3] .

فناقة صالح عليه السلام هي ناقة الله تشريفًا، وليس المراد إثبات الملكية لأن النوق كلها والكائنات بأجمعها ملك لله تعالى، وهذا معلوم بالضرورة.

والكعبة بيت الله تشريفًا خصت بهذا الوصف، وليس المراد إثبات ملكية هذا المكان لله تعالى، لأن كل الأبنية والبيوت ومن فيها لله جل جلاله..

والإضافة في قوله «مساجد الله» من هذا القبيل، فالمساجد مطهرة وهي بيوت الله في الأرض يعمرها المؤمنون الصادقون..

وكل ما أضيف إلى الله إضافة تشريف لا يملكه البشر ولو على جهة الاستخلاف بل تتجرد الملكية فيه لله تعالى، فالمساجد والكعبة وناقة صالح لا يملكها بشر ولا تنتقل ملكيتها من شخص لآخر، بل هي ملك خالص لله رب العالمين..

- فجبريل عليه السلام روح لأنه مجرد عن المادة المعروفة لنا، وقد جرى العرف اللغوي على إطلاق لفظ الروح على عالم ما وراء الطبيعة وما ليس من مادة العناصر..

كما أن إطلاق لفظ الروح على جبريل عليه السلام لما يترتب على عمله من حياة القلوب والعقول بوحي الله، وإصلاح الأفراد والجماعات بشرائع الله، وفي هذا الإطار وصف القرآن الكريم بأنه روح في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [4] .

فجبريل عليه السلام هو روح القدس لأنه مطهر من الآثام والشهوات، فهو ملك مقرب وهو روح الله شرفه الله بحمل أمانة الوحي إلى المرسلين، قال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [5] .

٣ ـ قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [6] .

---

(١) هود: ٦٤ . (٢) الحج: ٢٦ .
(٣) البقرة: ١١٤ . (٤) الشورى: ٥٢ .
(٥) غافر: ١٥ . (٦) الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥ .

إن القرآن هو وحي الله، وكّل به جبريل ليلقيه على سيدنا محمد ليقوم بتبليغه إلى العالمين، وقد نزل باللسان العربي الواضح الحجة، الظاهر البرهان . .

ووصف جبريل عليه السلام هنا بأنه الروح الأمين لأدائه أمانة التنزيل بلا زيادة أو نقص أو تحريف أو تبديل . .

ووصف جبريل فيما سبق بالقدس وهنا بالأمين ليجمع الحسنين، فهو طاهر في ذاته مبرأ من الدنس والإثم، وأمين فيما يمارسه من عمل وما يتحمله من رسالة . .

٤ ـ قال الله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ (١) .

والقسم بالنجوم التي ترجم الشياطين التي منعت من استراق السمع بعد بعثة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أو المراد بالنجم القدر المنزل من القرآن في كل مرة من مرات التنزيل . .

والمقسم عليه تزكية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في عقله ومنطقه، وفي ذاته وسلوكه وأنه مقيم على الحق مستمسك به . .

وهذا الحق الذي يتحمل أمانته الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو وحي كريم جاء به إليه ملك له من القدرة والقوة ما يمكنه من أداء مهمته، وهو ذو مرة أي منظر حسن بديع، أو تأكيد لشدة القوة.

- فقد وصف جبريل في هذا النص الكريم بالقوة والجمال، وهما صفتان ضروريتان للمهمة المنوطة به، فالقوة لحمل الرسالة وتوصيلها للرسول، والجمال لحسن اللقاء وجاذبية القلب لتلك الرسالة المقدسة . .

٥ ـ قال الله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾(٢) .

أي أنه إذا كان ليلة القدر نزل جبريل عليه السلام في كبكبة من الملائكة يسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى كما ورد بذلك الخبر.

وسمي جبريل روحًا لأنه من عالم الملأ الأعلى وليس من عالم العناصر المادية، ولأن مهمته المقدسة تحيي موات الأفراد والمجتمعات . .

---

(١) النجم: ١ ـ ٦ .

(٢) القدر : ٤ ـ ٥ .

٦ ـ قال الله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۝١٥ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۝١٦ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ (١).

هذا قسم من الله جل شأنه بعظائم الكون وعجائب المخلوقات، فالكواكب والنجوم مسخرات بأمر الله تظهر للعيون وتختفي، وتسبح في مجراتها بنواميس محكمة، والليل يقبل بظلامه والفجر يشرق بضيائه.

فمن خلق هذه الكونيات وأبدع تلك الآيات هو الذي أوحى آيات القرآن، وقام بالوحي ملك اصطفاه الله، وشرفه، بهيُّ الطلعة حسن الخلقة، له قوة تتناسب مع عظم الرسالة المنوطة به، وله مكانة رفيعة ومنزلة سامية لدى المولى سبحانه وتعالى، وله سيادة على الملأ الأعلى إذ هو المقدم في الملائكة، ومن هنا فقد اجتمعت له من الخصائص والمؤهلات ما يجعله أمينًا فيما تحمله من بلاغ عن رب العزة تبارك وتقدس..

وكلمة «ثَمَّ» بالفتح ظرف أي أن جبريل مطاع في الملائكة المقربين يصدرون عن أمره، ويرجعون إليه، وهناك قراءة بضم الفاء «ثُم» حرف عطف قصد به الترقي في الوصف تقديرًا لصفة الأمانة وبيانًا لفضلها..

ومما يؤكد السيادة لجبريل في الملأ الأعلى قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في صحيح مسلم: «**إن الله تعالى إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلانًا فأبغضه، فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه ثم توضع له البغضاء في الأرض**».

ويختم النص الكريم من سورة التكوير بتزكية سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتأكيد رؤيته لملك الوحي وثقته به وأمانته في التحمل والأداء عنه بلا أدنى اتهام أو بخل، فإن الضنين هو البخيل، وهناك قراءة بالظاء «بظنين» من الظنة وهي التهمة، فقد اجتمع للقرآن الشرف كله فهو وحي الله على لسان ملك مقرَّب إلى نبي مكرَّم..

---

(١) التكوير: ١٥ ـ ٢٥.

المبحث الثاني:

عصمة الوحي

- الضمان الإلهي للوحي.
- إيمان النبي بمصدر الوحي إليه.
- قصة الغرانيق.

الضمان الإلهي للوحي

بتدبر قليل ندرك أن الملك أو الرئيس إذا بعث مندوبًا عنه لا بد أن يتحقق لدى المرسل إليهم شخصية هذا المبعوث حتى يحظى بالقبول . .

ورب الناس أقدر على ذلك، فهو يؤيد رسله بالمعجزات التي يقف أمامها العقل والجهد الإنساني عاجزًا عن الإتيان بمثلها أو محاكاتها . .

ويمتنع عقلاً وشرعًا أن تقع المعجزة على أيدي المتنبئين الكذابين، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (١) .

فلو أن محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقاس عليه كل نبي ـ افترى على الله شيئًا من الوحي بالزيادة أو النقص لعاجله الله بعقوبة صارمة، لا تبقي ولا تذر . .

ومعنى قوله «لأخذنا منه باليمين» لأخذناه بالبطش الشديد أو لسحبناه من يمينه إلى حتفه بقطع الوتين الذي هو شريان بالقلب إذا قطع انتهت الحياة . .

وهذا على فرض التقول ببعض الرسالة فما بالك بمن يتقول الرسالة كلها؟!

فوصول الوحي إلى الأنبياء محوط بضمان إلهي يمنع التزيد على النص، ويحول دون التدخل الشيطاني في التبليغ . .

قال سبحانه: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ (٢) .

فهناك حراسة مشددة من الملائكة تتنزل مع ملك الوحي حتى يصل الوحي إلى الرسول محفوظًا من تدخل الشياطين . .

فالله تعالى يصطفي جبريل ويطلعه على غيب الوحي ويكلفه ببلاغه إلى النبي المصطفى من البشر، ويرسل معه حفظة من الملائكة حتى تتم عملية الإيحاء إلى النبي كاملة غير منقوصة . .

- والضمير في قوله «ليعلم» عائد إلى الله تعالى أو إلى النبي أو إلى البشر، والمعنى ليعلم الله أي ليظهر علم الله بأن الوحي قد وصل إلى النبي مصونًا من التبديل والتحريف.

---

(١) الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧ .   (٢) الجن: ٢٦ ـ ٢٨ .

وأمثال ذلك في القرآن كثير، كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ (١) . وقوله جل شأنه: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ (٢) .

أو ليعلم النبي أن الوحي قد وصل مصونًا تحفه الملائكة دون تدخل شيطاني فيؤمن يقينًا باصطفاء الله له . .

أو ليعلم الناس أي المكذِّبون الذين أشارت إليهم الآيات قبل ذلك في سورة الجن بقوله ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ (٣) .

فليعلم هؤلاء أن الله تعالى يحفظ وحيه إلى أنبيائه . .

هذا وإذا كان الشيطان قد منع شرعًا من التمثل بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الرؤيا كما جاء في صحيح الحديث «**مَن رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي**».

وإذا كان الرسول قد أخبر أن الشيطان لا يلقى عمر بن الخطاب في طريق واحدة فقال: «**ما سلك عمر فجًا إلا وسلك الشيطان فجًا آخر**» .

فهل يتصور أن يوقع الشيطان في وحي الله إلى رسله؟! وهل يعقل أن يتمكن الشيطان من التلبيس على الأنبياء؟! .

ومن الثابت في وقائع السيرة النبوية أنه بعد لقاء غار حراء بين الرسول وجبريل انقطع الوحي فترة من الزمن تشوق الرسول لمعاودة اللقاء، فتتبع رءوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقًا، فيسكن لذلك جأشه وتقر عينه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك . .

وذات يوم رأى الرسول الملك في صورته الحقيقية، وقال ـ كما في صحيح البخاري ـ: «**فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسيه بين السماء والأرض فجئثت منه رعبًا فرجعت فقلت: زملوني زملوني، فدثروني فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾(٤)** » .

(١) البقرة: ١٤٣ .
(٢) العنكبوت: ١١ .
(٣) الجن: ٢٣ ـ ٢٤ .
(٤) المدثر: ١ ـ ٥ .

إيمان النبي بمصدر الوحي إليه

أثبت الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الإيمان بأركان الدين وأصوله وحقائق الوحي الكبرى، كما أثبته للمؤمنين، فقال: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[1].

فيقين النبي ـ أي نبي ـ بمصدر الوحي إليه ثابت وواقع، وتصحبه بينات ودلائل، تؤكد في قلب النبي وعقله اتصاله بالملأ الأعلى واصطفاءه من رب العالمين..

ولقد رأيت فكرة نفيسة للإمام الرازي في تفسيره، تجعل وصول كلام الله تعالى إلى الملك ثم إلى الرسول ثم إلى الأمة قائمًا على معجزة خاصة تقطع بيقين مصدره فيقول:

إن الرسول إذا سمع (كلام الله تعالى) من الملك كيف يعرف أن ذلك المبلغ ملك معصوم لا شيطان مضل؟! .

والحق أنه لا يمكنه القطع بذلك إلا بناء على معجزة تدل على أن ذلك المبلغ ملك معصوم لا شيطان خبيث..

وعلى هذا التقدير فالوحي من الله تعالى لا يتم إلا بثلاث مراتب في ظهور المعجزات:

المرتبة الأولى: أن الملك إذا سمع ذلك الكلام من الله تعالى فلا بد له من معجزة تدل على أن ذلك الكلام كلام الله تعالى.

المرتبة الثانية: أن ذلك الملك إذا وصل إلى الرسول فلا بد له أيضًا من معجزة.

المرتبة الثالثة: أن ذلك الرسول إذا أوصله إلى الأمة فلا بد له أيضًا من معجزة.

فثبت أن التكليف لا يتوجه على الخلق إلا بعد وقوع ثلاث مراتب في المعجزات اهـ[2].

- وبالنسبة للمرتبة الأولى فإن المسألة فوق التصور البشري ولا نستطيع الخوض في شكل المعجزة التي تربط الملك بالله تعالى، وبالنسبة للمرتبة الثالثة فهي محل بحث كبير، ولها من الوضوح والظهور ما لا يخفى، فإن الأمة تتعرف على نبيها من خلال المعجزة، فتوقن بمصدر الوحي إليه، وما من نبي إلا وقدم برهان نبوته إلى أمته..

---

(١) البقرة: ٢٨٥ .

(٢) التفسير الكبير (ج ٢٧ ص ١٨٩) ط دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

تبقى معنا المرتبة الثانية وهي يقين النبي بمصدر الوحي إليه، وحاجته إلى معجزة تدل على أن الله اصطفاه، وهذا واضح جلي في تلقي موسى عليه السلام لوحي ربه في الوادي المقدس حينما انقلبت عصاه حية تسعى وأخرج يده بيضاء من غير سوء، قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ﴾ (١) .

ونسوق نموذجًا آخر لكيفية تيقن النبي بمصدر الوحي إليه من حياة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

أولاً: كان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتحنث في غار حراء الليالي ذوات العدد، ويخلو في هذا المكان يتأمل في ملكوت السموات والأرض، ويطعم من جاءه من المساكين وعابري السبيل..

الأمر الذي يجعل النفس أكثر إشراقًا، وأقرب إلى الفيض الإلهي..

ثانيًا: ثبت في صحيح مسلم أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلّم عليّ قبل أن أُبعث، إني لأعرفه الآن**» .

ويروي ابن إسحق: أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين أراده الله بكرامته وابتدأه بالنبوّة كان إذا خرج لحاجته (٢) أبعد حتى تحسر(٣) عنه البيوت، ويفضي إلى شعاب مكة وبطون أوديتها..

فلا يمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، فيلتفت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حوله وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة.

فمكث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث، ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله، وهو بحراء في شهر رمضان...» (٤) .

ويمكن فهم تسليم الحجر والشجر كما نفهم سائر خوارق العادات، فهي فعل الله تعالى الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فهي غير مألوفة للبشر.

---

(١) طه : ١٧ ـ ٢٣ .　　(٢) قضاء الحاجة .

(٣) تنقطع عنه البيوت ويبعد عنها.

(٤) الروض الأنف (ج١ ص٢٦٦) .

أو أن هذا التسليم مجاز عن أصوات ملائكة تناجي الرسول دون أن يراهم، فيظن الأصوات صادرة عما حوله من حجر أو شجر.

وعلى كل فالمقصود هو التهيئة النفسية والروحية لتحمّل الرسالة وتلقي الوحي عن طريق الإرهاص الشخصي.

ثالثًا: قبل تلقي الوحي بستة أشهر مكث - صلى الله عليه وسلم - لا يرى رؤيا إلا تحققت كما رآها.

وفي ذلك ما يمهد لربط النبي بالملأ الأعلى، ويقوّي يقينه برعاية الله له وكفالته إياه.

رابعًا: عندما فجأ الوحي محمدًا - صلى الله عليه وسلم - أول مرة وهو في غار حراء ورجع إلى زوجه خديجة، وقصَّ عليها ما حدث: أفضى إليها بمكنون سره، وقال: لقد خشيت على نفسي . . !!

هنا بدأت هذه السيدة الحكيمة تسلك أكثر من طريق كي تستوثق مما حدث:

١ - بحثت عن السلوك الشخصي لسيدنا محمد وعلاقاته الاجتماعية، فرأتها على المستوى الرفيع، فقالت: أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدًا . .

والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتُكسب المعدوم، وتَقري الضيف، وتعين على نوائب الحق (١) .

٢ - قامت بتجربة عملية . . فتروي كتب السيرة أنها قالت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أي ابن عم، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟! قال: «نعم» . قالت: فإذا جاء فأخبرني به.

فجاءه جبريل عليه السلام كما كان يصنع، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لخديجة: «يا خديجة، هذا جبريل قد جاءني» . قالت: قم يا ابن عم، فاجلس على فخذي اليسرى، فقام رسول الله، فجلس عليها. قالت: هل تراه؟ قال: «نعم» . قالت: فتحوّل فاجلس على فخذي اليمنى. فتحوّل رسول الله فجلس على فخذها اليمنى. فقالت: هل تراه؟ قال: «نعم». قالت: فتحوّل فاجلس في حِجْري. فتحوّل رسول الله فجلس في حجرها. قالت: هل تراه؟! قال: «نعم». فتحسّرت وألقت خمارها ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - جالس في حجرها، ثم قالت له: هل تراه؟ قال: «لا» . قالت: يا ابن عم، اثبت وأبشر، فوالله إنه لملك، وما هو بشيطان.

---

(١) راجع حديث بدء الوحي في صحيح البخاري (ج ١) . ويجوز فتح التاء في تكسب وضمها.

٣ ـ أخذت السيدة خديجة تسائل أهل الخبرة، فذهبت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان امرءًا تنصر في الجاهلية، وعلى علم بأخبار أهل الكتاب.

وتحدثت خديجة مع ورقة في شأن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما لقي في الغار، والتقى ورقة بسيدنا محمد وسمع منه خبر ما رأى، فوصل إلى نتيجة حاسمة ألقى بها في سمع الزمان: (والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى) .

وتضيف بعض الروايات أن السيدة خديجة ركبت إلى بحيرى الراهب، فسألته عن جبريل، فقال: قدُّوس .. قدُّوس.. يا سيدة نساء قريش أنَّى لك بهذا الاسم؟!

قالت: بعلِي وابن عمي محمد أخبرني أنه يأتيه.

فقال: قدُّوس.. قدُّوس.. ما علم به إلا نبي مقرَّب، فإنه السفير بين الله وبين أنبيائه، وإن الشيطان لا يجترئ أن يتمثل به، ولا أن يتسمَّى باسمه.

وكان بمكة غلام لعتبة بن ربيعة اسمه عداس، عنده علم من الكتاب، فأرسلت إليه تسأله عن جبريل، فقال: قدُّوس .. قدُّوس، أنَّى لهذه البلاد أن يذكر فيها جبريل يا سيدة نساء قريش؟!

فأخبرته بما يقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقال لها عداس مثل ما قاله الراهب..

فكان مما زادها الله تعالى به إيمانًا ويقينًا (١) .

خامسًا: بعد اللقاء الفريد في غار حراء بين الرسول وجبريل، انقطع الوحي فترة من الزمن تشوَّق الرسول خلالها لمعاودة اللقاء، فتتبع رءوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال: يا محمد، إنك رسول الله حقًا..

فيسكن لذلك جأشه، وتقرُّ عينه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا كمثل ذلك.

وذات يوم رأى الرسول الملك في صورته الحقيقية، ففي صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله قال: سمعت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: «**فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسيه بين السماء والأرض فجئثت منه رعبًا فرجعت فقلت:**

---

(١) الروض الأنف (ج١ ص ٢١٥) .

زملوني زملوني، فدثروني فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [(١)] » .

وبهذا يحصل الترقي في الاستعداد، ويثبت العزم على تبليغ الدعوة، وهكذا يتوالى التأكيد تلو التأكيد..

فيقين النبي - أي نبي - بمصدر الوحي إليه ثابت وواقع، وتصحبه بيِّنات من الأمر ودلائل، ، تؤكد في قلب النبي وعقله اتصاله بالملأ الأعلى واصطفاءه من رب العالمين..

وقد أثبت الله تعالى للنبي هذا الإيمان كما أثبته للمؤمنين، فقال: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ..﴾[(٢)] .

* * *

(١) المدثر: ١ ـ ٥ .

(٢) البقرة: ٢٨٥ .

قصة الغرانيق

ذكر بعض المفسرين وأهل السِّيَر قصة الغرانيق، وساقوا لها روايات متعددة، وهي لو أُخذت على ظاهرها تكون قادحة في مبدأ الضمان الإلهي للوحي، وقد تلقي ظلالاً على ضرورة يقين الأنبياء بالاصطفاء، وضرورة ثبوت العصمة لهم في مجال التبليغ عن الله تعالى..

والغرانيق مراد بها الأصنام، وهي في الأصل نوع من الطير طويل العنق، يشبه به في الجمال..

من هذه الروايات ما سيق عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن أنيس قالا: جلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في نادٍ من أندية قريش كثير أهله، فتمنى يومئذ ألاَّ يأتيه من الله شيء فينفروا عنه. فأنزل الله عليه: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [1] . فقرأها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى بلغ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [2] ، ألقى عليه الشيطان كلمتين: (تلك الغرانيق العلى، منها الشفاعة ترتجى). فتكلم بها، ثم مضى فقرأ السورة كلها فسجد في آخر السورة، وسجد القوم جميعًا معه، ورفع الوليد بن المغيرة ترابًا إلى جبهته فسجد عليه، وكان شيخًا كبيرًا لا يقدر على السجود.

فرضوا بما تكلم به، وقالوا: قد عرفنا أن الله يحيي ويميت، وهو الذي يخلق ويرزق، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، إذ جعلت لها نصيبًا فنحن معك. فلما أمسى أتاه جبريل عليه السلام فعرض عليه السورة، فلما بلغ الكلمتين اللتين ألقى الشيطان عليه قال: ما جئتك بهاتين.

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : **«افتريت على الله، وقلت على الله ما لم يقل؟!»** فأوحى الله إليه: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [3] .

فما زال مغمومًا مهمومًا حتى نزلت عليه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [4] .

---

(١) النجم: ١ - ٢ .
(٢) النجم: ١٩ - ٢٠ .
(٣) الإسراء: ٧٣ - ٧٥ .
(٤) الحج: ٥٢ .

فسمع من كان من المهاجرين بأرض الحبشة أن أهل مكة قد أسلموا كلهم فرجعوا إلى عشائرهم، وقالوا: هم أحب إلينا.

فوجدوا القوم قد ارتكسوا حين نسخ الله ما ألقى الشيطان».

تأويلات فاسدة:

وقد أجهد المفسرون أنفسهم في تأويل هذه الروايات، إذ وضعوها في مقابلة العصمة للرسول على مستوى واحد، وأخذوا يوفقون بينهما. . من هذه التأويلات:

١ ـ إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلاً ويفصِّل الآي تفصيلاً في قراءته، فيمكن ترصّد الشيطان لتلك السكتات، ودسّه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات، محاكيًا نغمة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفار، فظنوها من قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأشاعوها.

ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله وتحققهم من حال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ذم الأوثان وعيبها ما عرف عنه. . فيكون ما روي من حزن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرجعه لهذه الإشاعة والشبهة وسبب الفتنة.

٢ ـ قال بعضهم: إن «في» بمعنى «عند»، أي ألقى الشيطان في قلوب الكفار عند تلاوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، كقوله عز وجل: ﴿ولبثت فينا﴾ (١) أي عندنا.

فالأمنية بمعنى التلاوة كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلا أمانيَّ﴾ (٢) أي قراءة، لأن الأمي لا يعلم الكتاب من الصحف، وإنما يعلمه قراءة، وكما قال حسان بن ثابت:

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر

فالمشركون هم الذين توهموا أن النبي قال هاتين الكلمتين. .

٣ ـ ذهب آخرون إلى أن المتكلم بذلك بعض شياطين الإنس وهم الكفار، فإنه عليه الصلاة والسلام لما انتهى في قراءة هذه السورة إلى هذا الموضع وذكر أسماء آلهتهم، وقد علموا من عادته أنه يعيبها، فقال بعض من حضر: تلك الغرانيق العلى. . فاشتبه الأمر على القوم لكثرة لغط القوم وكثرة صياحهم، وطلبهم تغليطه وإخفاء قراءته، ولعل ذلك كان في صلاته عليه الصلاة والسلام، لأنهم كانوا يقربون منه في حال الصلاة ويسمعون قراءته ويلغون فيها.

---

(١) الشعراء: ١٨ .

(٢) البقرة: ٧٨ .

فتوهم القوم أنه من قراءة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ثم أضاف الله تعالى ذلك إلى الشيطان، لأنه بوسوسته يحصل أولاً، ولأنه سبحانه جعل ذلك المتكلم في نفسه شيطانًا.

٤ - هناك تأويل أكثر قبحًا وهو أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - تكلم بهذه الألفاظ سهوًا، أو قسرًا، أو اختيارًا..

فعلى الأول يقول قتادة ومقاتل: إن الرسول كان يصلي عند المقام فنعس وجرى على لسانه هاتان الكلمتان..!!

وقال قوم: إن الشيطان أجبر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يتكلم بهذا ..!!

ويروى عن ابن عباس أن شيطانًا يقال له الأبيض أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - على صورة جبريل، وألقى عليه هذه الكلمة، أو أن النبي عليه الصلاة والسلام لشدة حرصه على إيمان قومه أدخل هذه الكلمة من عند نفسه ثم رجع عنها.. ويذهب الزمخشري إلى أن الرسول سبق لسانه على سبيل السهو والغلط [١] .

وهذه التأويلات وغيرها لا تغني من الحق شيئًا، ومهما أكثر الناس من تصريف القول فيها فهي حرث في البحر، والتسليم بها قدح في النبوة ونيل من الوحي وافتراء على الرسول .

مع المحققين:

ونحن نرفض الرواية من أصلها، ولا نرقى بها إلى درجة معارضة المقطوع به، ولو شاء ربك لما رواها أحد ولا سطرها.

وحجتنا في ذلك مع المحققين من أهل العلم ما يلي:

أولاً: الاهتمام بالرواية ومحاولة التوفيق بين المتعارضين إنما يكون إذا تساوت الأدلة واتفقت في درجة الاحتجاج بها.

وعصمة الأنبياء في نطاق التبليغ عن الله تعالى من صميم العقيدة وجزئها الذي لا ينفك، وثبوتها بالعقل والنقل، وتظاهرت الآيات على إثباتها..

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[٢] .

(١) راجع هذه التأويلات وغيرها في تفسير الطبري (ج ١٧ ص ١٨٦)، وتفسير الزمخشري (ج ٣ ص١٩)، وتفسير القرطبي (ج ١٢ ص ٨١)، وتفسير ابن كثير (ج ٣ ص ٢٢٩) ، وتفسير الرازي (ج ٢٣ ص ٥٠)

(٢) المائدة: ٦٧ .

فكتمان الوحي أو الزيادة عليه معارضة لهذا الأمر الإلهي الصريح، وانحراف عن الرسالة التي نيطت بهذا الإنسان المصطفى، وتمرد على طاعة الله.

وكل ذلك يستحيل في حق الأنبياء.

وقال سبحانه: ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ (١).

فالآية تتحدث عن نعمة الله تعالى وفضله على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث عصمه العصمة الكاملة، وثبته التثبيت كله رغم محاولاتهم إغراء الرسول بالتخلي عن رسالته مقابل الملك عليهم أو السيادة، ورغم شدة البأساء والضراء التي ألحقوها بالرسول والمسلمين..

ولولا حرف امتناع لوجود، أي امتنع الركون إليهم لوجود التثبيت الإلهي..

ثم نلاحظ أن في الآية تهديدًا ووعيدًا لأدنى انحراف عن الرسالة، والميل إلى أهواء المشركين..

وقال جل شأنه في سورة النجم نفسها: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴾ (٢).

فغريب أمر هؤلاء المفتونين برواية الغرانيق، لقد كان يكفي مطالعة صدر سورة النجم لنرفض كل ما يتعارض معها.. !!

فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يصدر في فعله ولا قوله التشريعي عن هوى النفس، وإنما يتعاهده الوحي دائمًا، ويتنزل عليه الملك الروحاني بما له من قوة وفطنة ووضوح..

وبالتالي لن يستطيع شيطان من الإنس أو الجن أن يفتنه في التقوّل على الله، أو يزيد فيما أنزل الله، أو ينحرف عن وحي الله.. ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ (٣).

وقصة الغرانيق ليس لها من الصحة ما يعارض القطعي من العصمة حتى نكلف أنفسنا محاولة التوفيق..

وما ذكره الإمام ابن حجر في قوله(٤): (إن القصة رويت بثلاثة أسانيد على شرط

(١) الإسراء: ٧٣ ـ ٧٥.
(٢) النجم: ٣ ـ ٧.
(٣) النحل: ٩٩ ـ ١٠٠.
(٤) فتح الباري (ج٨ ص ٣٣٣).

الصحيح، وهي مراسيل يحتجّ بمثلها من يحتج بالمرسل، وكذا من لا يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض) .

فلا يزيد الأمر شيئًا، فلا تزال أدنى مرتبة من ثبوت العصمة للأنبياء .

وقضية الاحتجاج بالمرسل أو عدم الاحتجاج به لا علاقة لها بمجال العقيدة، وإذا كان من المقرر أن أحاديث الآحاد المرفوعة المتصلة لا تعارض القطعي المتواتر فكيف بالمراسيل؟!!

وكيف بها إذا ناقضت المقطوع به نقلاً وعقلاً ؟ !!

ثانيًا: إن جمهرة كبيرة من العلماء الثقات طعنوا طعونًا قوية في هذه الروايات، ومالوا بها إلى أنها من وضع الزنادقة وأعداء الدين، وأنها قائمة على التلفيق في الإسناد والكذب في المتن. .

قال القاضي عياض في كتاب الشفا [١] : (فيكفيك أن هذا حديث لم يخرِّجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقةٌ بسند صحيح سليم متصل، وإنما أُولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم. .

وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي حيث قال: لقد بُلي الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير، وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقله واضطراب رواياته وانقطاع إسناده واختلاف كلماته.

ثم قال: ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين لم يُسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية، والمرفوع فيه حديث شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال فيما أحسب، والشك في الحديث أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان بمكة وذكر القصة. . قال أبو بكر البزار: هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير. . وإنما يعرف عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

فقد بين لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف عن طريق تجوز ذكره سوى هذا، وفيه من الضعف ما نبَّه عليه، مع وقوع الشك فيه الذي ذكرناه، الذي لا يوثق به ولا حقيقة معه.

وأما حديث الكلبي فمما لا يجوز الرواية عنه ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه كما أشار إليه البزار رحمه الله».

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى حـ٢ ص١٢٥ ط دار الكتب العلمية بيروت.

وساق الإمام الرازي [١] : أنه روي عن محمد بن إسحق بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة، فقال هذا من وضع الزنادقة، وصنف فيه كتابًا.

وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، ثم أخذ يتكلم في أن رواة هذه القصة مطعون فيهم».

وقال الإمام ابن كثير [٢] : قد ذكر كثير من المفسرين ها هنا قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة ظنًا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا.. ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح».

وقال العلامة الكرماني [٣] : وما قيل كان ذلك بسبب ما ألقى الشيطان في أثناء قراءة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (تلك الغرانيق العلا، منها الشفاعة ترتجى) فلا صحة له نقلاً وعقلاً».

ثالثًا: إن الرواية التي سقناها في مفتتح هذه الدراسة عن قصة الغرانيق لو تأملناها قليلاً نجد بها مآخذ كثيرة ـ غيرما يتعارض مع العصمة ـ منها:

أ ـ قولهم: (جلس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في نادٍ من أندية قريش كثير أهله..).

والواقع التاريخي ينبئ أنه في هذا الوقت ما كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمون يجهرون بالقرآن المجيد في جوف الكعبة، أو في أندية قريش، وإنما كانوا يتخافتون بصلاتهم، وقد هاجر بعض المسلمين إلى أرض الحبشة فرارًا بدينهم..

ب ـ قولهم : (فتمنى يومئذ ألاَّ يأتيه من الله شيء فينفروا عنه) .

يقصدون به أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تمنى مهادنة المشركين في عقائدهم وتأليفهم على ما هم عليه من ضلال.

فأي منطق هذا؟ !.

إن الرسالة الأولى والأساسية للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هي الدعوة إلى الله وحده، وإخلاص العبادة له سبحانه، وقد طلب منهم منذ بدء الدعوة (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا..).

فهل هذه القضية تحتمل المواربة أو التأجيل أو التنازل ؟! .

وإلام يدعوهم وعلام يتألفهم إذا نحّينا جانب التوحيد؟! .

---

(١) التفسير الكبير (ج٢٣ ص ٥٠) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (ج٣ ص ٢٢٩) .

(٣) صحيح البخاري شرح الكرماني (ج١٨ ص١١٦) .

ج ـ قولهم : (ورفع الوليد بن المغيرة ترابًا إلى جبهته فسجد عليه . .).
هذا يخالف ما ثبت في الصحيح أن أمية بن خلف هو الذي فعل ذلك . .
والقصة كما رواها البخاري في صحيحه خالية تمامًا من زيادة إلقاء الشيطان . .
ونص الرواية : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سجد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس.
وفي رواية أخرى: أول سورة أُنزلت فيها سجدة «والنجم» قال: فسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسجد من خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفًا من تراب فسجد عليه فرأيته بعد ذلك قُتل كافرًا وهو أُمية بن خلف».
ولعل سجود المشركين من التأثير البياني المعجز للقرآن العظيم، فهم كانوا يتسمعون للقرآن، ويتحاورون حول حقيقته، ويحاولون إدراك مغزى هذا الوحي كما قال جل شأنه: ﴿عمَّ يتساءلُون ① عنِ النَّبإ العظِيم ② الَّذي هُمْ فيهِ مُختلفون﴾ [١] .
وقد قال قائلهم [٢]: والله إن لقوله الذي يقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته . . . ».
رابعًا: إن الآية الكريمة في سورة الحج ـ التي جعلوا سبب نزولها قصة الغرانيق ـ لها من السياق الموضوعي والمعنى الواضح ما يباعد بينها وبين هذه القصة المزعومة.
يقول الله تعالى: ﴿ومَا أرْسَلْنَا من قَبْلكَ من رَّسُولٍ ولا نبيٍّ إلاَّ إذا تمَنَّىٰ ألْقَى الشَّيْطَانُ في أُمْنيَّته فينسَخُ اللَّهُ ما يُلقي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحكمُ اللَّهُ آياته واللَّهُ عليمٌ حكيمٌ﴾ [٣] .
هذه الآية سبقها بأكثر من عشر آيات قوله تعالى: ﴿أُذنَ للَّذينَ يُقاتَلُونَ بأنَّهُمْ ظُلمُوا وإنَّ اللَّهَ علَىٰ نصْرهمْ لقديرٌ﴾ [٤] .
وهي أول آية نزلت في القتال بعد مرحلة طويلة من ضبط النفس وتحمل الأذى . .
ثم ألمحت الآيات إلى وعد الله تعالى بالنصر لمن يتحمل أمانة التكليف الإلهي ويقود الحياة بمنهج الله . . قال تعالى: ﴿ولَينصُرَنَّ اللَّهُ من ينصُرُهُ إنَّ اللَّه لقويٌّ عزيزٌ﴾ [٥] .
ثم ساقت الآيات عبرة القرون الأولى وما فعله الله بالقرى الظالمة.
قال سبحانه: ﴿فأمْلَيْتُ للْكافرين ثُمَّ أخذْتُهُمْ فكيْف كان نكير﴾ [٦] .

---

(١) النبأ: ١ ـ ٣ .
(٢) السيرة النبوية لابن كثير، تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد (ج١ ص٤٩٩) .
(٣) الحج: ٥٢ . (٤) الحج: ٣٩ .
(٥) الحج: ٤٠ . (٦) الحج : ٤٤ .

وتؤكد الآيات أن مشركي قريش على شاكلة من سبقهم من المكذبين، وشأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ينذرهم ويوضح لهم العاقبة التي تنتظر الناس، إن خيراً فخير وإن شراً فشر . .

قال جل شأنه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١) .

ثم تأتي آياتنا في هذا السياق الموضوعي لتضع الحقيقة الكاملة أمام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

فهو ليس بدعًا من الرسل، وكل نبي كان حريصًا على هداية قومه، يشقّ عليه مخالفتهم، ويحزنه إعراضهم، ويود أن لو استقاموا على الطريقة.

هذه أمنية كل رسول ونبي . .

وقد أثبت الله تعالى هذا المعنى لسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أكثر من آية، فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٢) .

وقال جل شأنه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (٣) .

وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٤) .

ولكن الحياة لا تخلو من عقبات . .

وشياطين الإنس والجن يقفون بالمرصاد لكل دعوة حق . . يلقون الشبه، ويثيرون الفتنة، ويفسدون في الأرض، كما قال جل شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (٥) .

ويظل المؤمنون الصادقون في جهاد وبلاء وتمحيص حتى يأتي وعد الله ويتحقق نصر الدين والملة، وتصبح كلمة الله هي العليا . .

وهنا تتخاذل الشياطين، وتزول مكائدهم وتطهر الأرض من رجسهم ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٦) .

وتلك سنة جارية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . عبر عنها القرآن في أكثر من آية مثل قوله سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾(٧) .

---

(١) الحج: ٤٩ ـ ٥١ . (٢) التوبة: ١٢٨ . (٣) الكهف: ٦ .
(٤) فاطر: ٨ . (٥) الأنعام: ١١٢ .
(٦) الحج: ٥٢ . (٧) الصف: ٨ .

الفصل الثاني

النبوة والرسالة

- حاجة البشر إلى الرسالات.
- تعريف النبي .
- النبي والرسول.
- التفاضل بين الأنبياء.
- الكتب المقدسة.

حاجة البشر إلى الرسالات

هناك حكم كثيرة لبعثة الرسل، أهمها ما يلي:

أولاً: الإنسان صنعة الله تعالى، وهبه الوجود، ومنحه أسباب الحياة، وجعله خليفة في أرضه، ولا بد للصنعة أن تسير وفق إرادة صانعها، فهو أدرى بها، وأعرف بما يصلحها، وأعلم بما هو من خصائصها..

فكانت الرسالات الإلهية تحقيقًا للصلة الوثيقة بين الصنعة والصانع.. قال الله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١).

وفي قوله جل شأنه: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ توجيهان:

الأول: أن المراد بمن خلق هو الله تعالى، والمعنى: ألا يعلم الخالق، فالخالق جدير بأن يكون عالمًا حكيمًا حتى يتحقق منه الخلق والإبداع.. فاسم الموصول هو الفاعل.

والثاني: أن المراد بمن خلق هو المخلوق، فاسم الموصول مفعول به، ويكون الفاعل ضميرًا مستترًا يعود على الرب سبحانه وتعالى، والمعنى: ألا يعلم الله المخلوقات التي أبدعها وأحسن صنعها..

وعلى كل، فالآية تأكيد للصلة بين الخالق والمخلوق، وبيان لضرورة تبعية المخلوق للخالق، وهيمنة الخالق على المخلوق..

ثانيًا: طالما كان الإنسان في حاجة إلى خالقه ومبدع وجوده فهناك حاجة لتحديد العلاقة بينهما، وتتمثل هذه العلاقة في الطاعة الواجبة والخضوع المستحق لله تعالى..

وليس يدرك الإنسان حقيقة خالقه كي يتقدم له بما يتناسب مع الجلال والكمال الإلهيين، فكانت بعثة الرسل لتضع الإنسان على الطريق الصحيح للعبادة الخالصة لله رب العالمين.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (٢).

والعبادة هي منتهى الخضوع والتذلل، ولا تكون إلا لله تعالى، وهي لا تعرف في تفاصيلها وهيئاتها إلا عن طريق الرسل، ولذا وجبت طاعتهم ولزم الاقتداء بهم.. وحكى

---

(١) الملك: ١٣، ١٤.
(٢) الذاريات: ٥٦ : ٥٨.

القرآن المجيد على ألسنة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام في سورة الشعراء قولهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (١) .

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «صلوا كما رأيتموني أصلي» ، وقال: «خذوا عني مناسككم» .

ثالثًا: إن عقل الإنسان ـ شأنه شأن كافة حواسه ـ محدود بعالم المادة، يدرسها ويكتشف نواميسها ويسعى لاستخدامها والانتفاع بها.

وهذا العقل قاصر عن أن يتجاوز الطبيعة إلى ما وراء الطبيعة، من عالم الملأ الأعلى واليوم الآخر، فكانت بعثة الرسل كشفًا لما وراء الطبيعة، ووصلاً للحياة الأولى بالحياة الأخرى، ودعوة لمنهج يحقق للأحياء كرامة الدنيا وسعادة الآخرة. .

فإن قدرة العقل تقف عند حافة القبر لا تتجاوزه، وبالتأكيد والقطع فإن الإنسان لم يخلق عبثًا ولن يترك سدى، ولا تنتهي حياته بموته، فتفاصيل ما بعد الموت من البعث والنشور والحساب والجزاء يحتاج إلى خبر الوحي الصحيح وبلاغ الرسول الصادق الأمين.

ولهذا حذر جميع الرسل من اليوم الآخر ونصحوا أقوامهم ضرورة الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح. .

وعلى سبيل المثال فقد قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ (٢) ، ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٣) .

رابعًا: الإنسان مدني بطبعه، لا يعيش وحده، وهو يرتبط ارتباطًا لا ينفصم ببني جنسه، ولا بد من قانون يحدد الحقوق والواجبات، ويحظى هذا القانون بقوة الإلزام. .

ولن تتأتى هذه القوة الملزمة من بشر، فهم متنازعون متغالبون، ولا حل إلا أن يأتي القانون من رب البشر الذي تخضع له القلوب وتسجد له الجباه ويلجأ إليه الإنسان في السراء والضراء. . قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٤) .

إن هذه الآية الكريمة تؤكد حقائق مهمة، لقد بعث الله تعالى الرسل بالحجج الباهرة والمعجزات الناطقة بصدق البلاغ عن الله وضرورة التصديق للأنبياء. .

---

(١) الشعراء: ١٠٧ ـ ١٠٨ . (٢) هود: ٢٦ .
(٣) الأعراف: ٥٩ . (٤) الحديد: ٢٥ .

وأنزل الله مع هؤلاء المصطفين الكتاب، وهو الوحي المتضمن للتكاليف الشرعية والمبين لمنهج الحق في قيادة الخلق . .

كما أنزل الميزان أي شرع العدل وغرسه في الفطر والعقول حتى يتوافق الوحي والعقل، ويتلاقى الشرع والنظر، ويجتمع الدين والفكر . . فلولا عقل الإنسان ما فهم الوحي الإلهي، ولولا فطرة البشر ما عرف الدين . .

وإن الهدف السامي لهذا اللقاء الطيب المبارك هو أن يعيش الناس بنور الله وتستقيم حياتهم على منهج الله، فترد المحبة وتعمّ المعرفة وتتحقق عمارة الكون . .

وبما أن طبائع البشر قد يعتريها ما يخرجها عن صفائها ونقائها فالحاجة ماسة إلى أن يساند الحق قوة تحميه وتشد أزره، وتمنع عنه الإفراط والتفريط . .

لقد شرع الله الجهاد وأرشد الناس إلى أسباب القوة، فخلق الحديد وسخره للإنسان كي يتخذ منه ما ينفعه في الحرب والسلم، فإن الحديد يدخل في كل شيء دخولاً مباشرًا أو غير مباشر، فثوب الحرير يحتاج إلى آلة تغزله وتنسجه وتخيطه . . إلخ.

وفرض الله الجهاد على أصحاب دعوة الحق لتأمين الدعوة ورد كيد الأعداء . .

ولو شاء الله لجمع الناس على الحق جبرًا وانقيادًا، لكن حكمة التكليف تقتضي حرية الاختيار، ليقف كل إنسان أمام مسئوليته ويلقى جزاء إرادته وفعله.

خامسًا: إن رحمة الله بعباده أعظم من أن يتصورها العقل وأعمق من أن يحيط بها الإنسان وأكبر من أن يعبر عنها باللسان، وقد جاء في صحيح الحديث قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : **«جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءاً واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»** .

ومن رحمة الله تعالى بعباده أن ربط التكليف الشرعي بالرسالات، فلا حساب ولا عقاب قبل العلم بالدعوة على وجهها الصحيح لمن استكمل مؤهلات التكليف من البلوغ والعقل . . قال الله تعالى: ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١) .

فعدل الله ورحمته يقتضي عدم مسئولية الإنسان قبل بعثة الرسل، فلا عقاب في الآخرة قبل بلاغ المرسلين، ولا عقاب في الدنيا لمن لم تصله دعوة نبي.

---

(١) الإسراء: ١٥.

ولهذا جاءت الآية التالية عقب الآية السابقة من سورة الإسراء: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (١).

والمعنى أمرناهم بالحق والعدل على لسان المرسلين ومن خلال الوحي المنزل، ففسقوا بالإعراض والاستكبار والتمرد، فدمرهم الله جزاء اختيارهم وضلالهم..

وقد تظاهرت آيات القرآن المجيد مؤيدة هذا المعنى ومؤكدة حاجة البشر إلى الرسالات، وكان سؤال التقرير الذي يوجه إلى كل كافر يساق إلى جهنم يوم القيامة:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ (٢).

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ (٣).

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ (٤).

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (٥).

وهكذا فإن بعثة الرسل ضرورة كبرى لمسيرة الإنسان في الدنيا وفي الآخرة.

* * *

(١) الإسراء: ١٦.
(٢) الأنعام: ١٣٠.
(٣) فاطر: ٣٧.
(٤) الزمر: ٧١.
(٥) الملك: ٨.

تعريف النبي

النبوة لا تخضع لمؤهلات تحتم أن يكون صاحبها نبيًا، وليس لها شروط نلزم بها ربنا تبارك وتعالى، وإنما هي محض فضل يمن الله بها على من يشاء من عباده.. لكن إذا اصطفى الله إنسانًا صنعه على عينه وطهره تطهيرًا، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (١).

وقد استقرأ العلماء تاريخ الأنبياء، فوجدوا صفات مشتركة بينهم، فجمعوها وجعلوها تعريفًا للنبي وقالوا:

النبي: إنسان، ذكر، حر، خال من العيوب المنفرة، أوحى الله إليه بشرع.. فهذه خصائص خمس تقرب لنا خصال الإنسان المصطفى للنبوة:

١ ـ إنسان:

فالنبي من بني البشر، وليس هناك نبوة من الجن، وإن كانوا مكلفين بالعقائد والشرائع التي أوحى الله بها إلى أنبيائه، وقد حكى القرآن عقيدة الجن برسالة موسى عليه السلام، وإيمانهم برسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصلتهم بسليمان بن داود عليهما السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢).

وإنما قال الجن: «أنزل من بعد موسى» ولم يقولوا «أنزل من بعد عيسى» لأن الشريعة التي دعا إليها عيسى عليه السلام هي شريعة موسى عليه السلام، فهي التي ظلت سارية إلى أن جاء الإسلام، اللهم إلا بعض أحكام قليلة جاء بها عيسى عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ (٣).

فأنبياء البشر هم الذين يبلغون عالم الجن، ويتولى أمرهم بعد ذلك دعاة منهم أو منذرون يشرحون لهم حقائق الدين.

---

(١) الأنعام: ١٢٤.

(٢) الأحقاف: ٢٩ ـ ٣١.

(٣) آل عمران: ٥٠.

وقد حاول بعض العلماء الاستدلال على أن هناك أنبياء من الجن بقوله تعالى: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا ﴾ (١) . بناء على أن الخطاب للجن والإنس، وأن الضمير في قوله «رسل منكم» يعود على كل واحد منهما.

ويمكن الرد على ذلك: بأن الضمير يعود على المجموع وليس على الجميع بمعنى أن دعوة الأنبياء من الإنس قد وصلت إلى الجن وقامت عليهم الحجة.. وقد استخدم القرآن عود الضمير على المجموع لا على الجميع، في مثل قوله تعالى: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ (٢) .

فالضمير في قوله « منهما» عائد على مجموع البحرين لا على كل واحد منهما إذ اللؤلؤ والمرجان لا يخرج من الماء العذب، وإنما يخرج من الماء المالح فقط.

كذلك فليس من الحكمة أن يصطفي الله الأنبياء إلى البشر من الملائكة، لأن للملك خصائص تختلف عن خصائص البشر، ولا يقدر الناس على التعامل مع الملك في صورته الملائكية، بل إن الأنبياء أنفسهم لم يتعاملوا مع ملك الوحي إلا من خلال تشكله بالصورة البشرية، فكان جبريل الأمين يأتي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في صورة أعرابي، أو في صورة دحية الكلبي، أو في صورة بشرية أخرى، ولم ير النبي ملك الوحي في صورته الملائكية إلا مرتين:

الأولى: في بدء الوحي عندما فتر الوحي وتطلع الرسول إلى معاودة اللقاء فرآه سادًا عظم خلقه ما بين السماء والأرض له ستمائة جناح .

الثانية: ليلة الإسراء والمعراج عند سدرة المنتهى.. (٣).

فكيف يتأتى لبشر عادي أن يتعامل مع النبي الملك في صورته الملائكية ؟!

فلا بد ـ إذن ـ من التشكل بصورة البشر، وهنا يعود التساؤل هل هو ملك أو بشر؟!

ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ (٤) .

هذا وقد ذكر الإمام ابن حزم أن أحمد بن حابط من أهل البصرة ومن تلاميذ النظام يقول: إن الله عز وجل جعل أنبياء من كل نوع من أنواع الحيوان حتى البق والبراغيث والقمل، وحجته في ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ (٥) .

---

(١) الأنعام: ١٣٠ . (٢) الرحمن: ١٩ ـ ٢٢ . (٤) الأنعام: ٩ .

(٣) راجع كتابنا «النبوة المحمدية» ص ١٧٧ . ط. دار الاعتصام. (٥) الأنعام: ٣٨ .

وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[١] .

وقد رد ابن حزم هذا الرأي وكفر قائله، لأن الله تعالى يقول: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[٢] .

وإنما يخاطب الله بالحجة من يعقلها، قال تعالى: ﴿يا أولي الألباب﴾ .

وقد علمنا بضرورة الحس أن الله تعالى إنما خص بالنطق الذي هو التصرف في العلوم، ومعرفة الأشياء على ما هي عليه، والتصرف في الصناعات على اختلافها ـ الإنسان خاصة، وأضفنا إليهم بالخبر الصادق الجن، وأضفنا إليهم بالخبر الصادق الملائكة، فعلمنا بضرورة العقل أن الله تعالى لا يخاطب بالشرائع إلا من يعقلها ويعرف المراد منها، وبقوله تعالى: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ .

فالبهائم غير مخاطبة بالشرائع، ومعنى قوله تعالى «أمم أمثالكم» أي أنواع أمثالكم إذ كل نوع يسمى أمة، فالخلق متعدد. .

ومعنى قوله تعالى «من أمة» أي من أمم الناس، وهم القبائل والطوائف، ومن الجن لصحة وجوب العبادة عليهم[٣] .

٢ ـ ذكر :

فالنبي رجل من بني الإنسان وليس امرأة، لأن النبوة إمامة وقيادة، وتقتضي مباشرة أمور تشق على النساء كقيادة الجيش وتدبير أمور الجهاد، وقد تستدعي مواقف تحظر على النساء كالخلوة مع الأجنبي والسفر الطويل في صحبة الرجال، ويعتري النساء بحكم طبيعتهن أحوال كالحيض والنفاس تتنافى مع مناجاة الملك والتلقي عن الله عز وجل .

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[٤]

وحاول البعض أن يجعل نبوة في النساء مثل أم موسى ومريم، واستدل بقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[٥] . وقوله : ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[٦] .

وهذا الاستدلال مردود بأن الوحي إلى أم موسى وحي إلهام لا وحي نبوة، وليس يلزم من كلمة الوحي النبوة، فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا..﴾[٧] . بمعنى ألهمها إلهامًا غريزيًا، وفطرها على ذلك.

---

(١) فاطر: ٢٤ . (٢) النساء: ١٦٥ .

(٣) الفصل في الملل والنحل ص ١٤٩، تحقيق د/محمد نصر ، د/عبد الرحمن عميرة ، بتصرف.

(٤) الأنبياء: ٧ . (٥) القصص: ٧ .

(٦) مريم: ١٧ . (٧) النحل: ٦٨ .

ومناجاة المَلَك لمريم لا ينهض دليلاً على النبوة، فكم من مرة يتنزل فيها جبريل الأمين على مؤمنين صادقين في ليلة القدر وليسوا بأنبياء، قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾[(١)] .

وقد جنح ابن حزم إلى القول بنبوة النساء بمعنى آخر غير ما نقصده، فقد أراد بها:

القصد من الله تعالى إلى إعلام من يوحى إليه بما يعلمه به، ويكون عند الموحى إليه حقيقة خارجة عن الإلهام والكهانة والتنجيم والظن، ويُحدث الله عز وجل لمن أوحى إليه علمًا ضروريًا بصحة ما أوحى به كعلمه بما أدرك بحواسه وبديهة عقله سواء بسواء، لا مجال للشك في شيء منه، إما بمجيء الملك إليه به، وإما بخطاب يخاطب به في نفسه، وهو تعليم من الله تعالى لمن يعلمه دون وساطة معلم[(٢)] ».

وهذا المعنى الذي يقرره ابن حزم لا نعده نبوة، وإنما نعده لونًا من الإلهام الإلهي لمن يشاء من عباده..

٣ ـ حر:

جاء الأنبياء لقيادة البشر، ولم يبعث الله تعالى نبيًا إلا في منعة من قومه وشرف فيهم، حتى يسهل انقيادهم له، ولنقرأ قول الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[(٣)] .

وإذا كان المترفون في المجتمع، وكبراء القوم، نفروا من الأنبياء ورفضوا دعوتهم لأن الضعفاء يتبعونهم، فكيف لو كان النبي نفسه من الطبقات الدنيا؟

قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾[(٤)] .

فالأنبياء جميعًا لا مطعن في نسبهم، وهم أشراف الناس بمقاييس أقوامهم، ويكفي أن نقرأ حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» رواه مسلم.

ولا ينبغي لأحد أن يزعم أن يوسف الصديق كان عبدًا، فإن نسب يوسف عليه السلام من أجل الأنساب فهو الكريم ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن

---

(١) القدر: ٤ .
(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل جـ٥ ص ١١٩ .
(٣) هود: ٩١ ـ ٩٢ .
(٤) هود: ٢٧ .

إسحق بن إبراهيم عليهم السلام، وما حدث ليوسف في قصر العزيز هو موقف عارض في حياته نجم عن مواقف بغي من إخوته ثم نصره الله نصراً عزيزاً، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١) .

٤ ـ خال من العيوب المنفرة:

فالأنبياء معصومون من الأمراض المعدية، والأخلاق الرديئة، التي تتنافى مع مهمة التبليغ عن الله، إذ كيف يتولى الرسالة رجل يفر الناس منه ولا يتحملون رؤيته؟

وما ينسب إلى أيوب عليه السلام من تناثر أعضائه، وخروج الديدان من بدنه، هو من الإسرائيليات التي يرفضها الإسلام، وكل ما حدث لأيوب مرض عادي، فَقَدَ معه أولاده وماله، وليس ذلك بقادح في النبوة، فإنه لا شماتة في الموت، ولا يعير به أحد.

كذلك لا يكون النبي أعمى لأنه يحتاج إلى من يقوده، فكيف يؤدي رسالة ربه؟

وما حدث ليعقوب عليه السلام من بياض عينيه لم يكن عمى حقيقيًا، وإنما هو موقف حزن شديد جعله لا يستطيع تحقيق الرؤية، وكم منا عند كثرة همومه لا يحس ما بيده ولا يدري ما حوله . .

ولهذا لما زال حزن يعقوب وفرج الله كربه، عاد إليه بصره سريعًا، قال الله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٢) .

وقال جل شأنه: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ (٣) .

٥ ـ أوحى الله إليه بشرع:

فمهمة النبي هي التلقي عن الله تعالى ما شرعه الله للإنسان وكلفه به سواء في ذلك الفرد أو الجماعة، وسواء كان ذلك لجيل من البشر أو لأجيال، وسواء كان ذلك لمكان ما أو لأماكن شتى.

وأنواع التلقي عن الله تعالى حددتها الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(٤) .

* * *

---

(١) يوسف: ٢١ ـ ٢٢ .
(٢) يوسف: ٨٤ .
(٣) يوسف ٩٦ .
(٤) الشورى ٥١ .

النبي والرسول

جرى كثير من العلماء في دراساتهم على أن كل رسول نبي ولا عكس فبينهما العموم والخصوص المطلق، فيصدق أحدهما على ما يصدق عليه الآخر من غير عكس، يجتمعان في شخص واحد يسمى نبيًا ورسولاً كموسى وعيسى ومحمد - صلى الله عليهم وسلم - ، وينفرد الأعم وهو النبي في شخص يسمى نبيًا ولا يسمى رسولاً..

ويفرقون بين النبي والرسول بمسألة التبليغ، فالرسول أمر بتبليغ ما أوحى الله إليه، والنبي سواء أمر بالتبليغ أم لم يؤمر..

ونحن نتحفظ على هذا الاتجاه لما يلي:

١ - إن مسألة الشرع الخاص الذي لا يؤمر النبي بتبليغه يتنافى مع الحكمة من النبوة، فالوحي يتنزل على الأنبياء بشرائع تنفعهم وتنفع أقوامهم..

٢ - لا نعرف شخصًا واحدًا ذكره القرآن المجيد يسمى نبيًا فقط ولا يسمى رسولاً، فكل من ورد ذكرهم في القرآن من الأنبياء بلغوا الرسالة ونصحوا أقوامهم، ولا يصح أن نخترع اصطلاحات في العقيدة لا تمثل الواقع الصحيح.

وقد حاول أحد العلماء أن يستشهد بنبي لم يبلغ فقال: إننا إذا نظرنا فيمن تحدث القرآن عنهم بأنهم أنبياء وجدنا بعضهم لم يؤمر بتبليغ رسالة إلى قومه، كما لم يذكر في عداد الرسل، ويمكن أن نستشهد لهذا بمثل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾[١].

وهذا النبي لم يذكر في عداد الرسل مع أنه قد جرى التنويه به وبقصته مع بني إسرائيل من بعد موسى.

قال المؤرخون وتابعهم المفسرون: واسمه صمويل = شمويل»[٢].

وهذا الاستشهاد غير صحيح بالمرة فإن هذا النبي قد تحمل رسالة إلى قومه وبلغها لهم وحثهم على الجهاد وهو سنام الرسالة، ودار حوار طويل سجله القرآن المجيد بين هذا النبي وقومه، ولنقرأ:

---

(١) البقرة: ٢٤٦.

(٢) العقيدة الإسلامية وأسسها. للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني ص ٣٠١ ط دار القلم بدمشق.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا .

قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا .

فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ .

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا .

قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ .

قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

لقد طلب بنو إسرائيل من نبيهم أن يرشدهم إلى مَلِك يتولى قيادتهم في الجهاد، وأكدوا له حرصهم على القتال لاستخلاص حقوقهم لكنهم نكسوا على رءوسهم عندما حق الجهاد ووجب القتال.

وتبين الآيات أن الله تعالى استجاب دعوة نبيه، وبعث لبني إسرائيل طالوت ملكًا، فاعترضوا عليه من جهتين:

١ ـ أنه ليس من بيت ملك.

٢ ـ أنه فقير لا مال له.

ونسوا أن الـمُلك اصطفاء وكفاءة .

وساق لهم نبيهم علامة على بركة هذا الملك ومقدرته على قيادة المعارك بمسألة التابوت، وفي تفسير هذا التابوت قيل: إنه صندوق كان موسى عليه السلام يضع فيه التوراة، ورفع بعدما قبض موسى سخطًا على بني إسرائيل، ثم عاد التابوت ونزل من السماء إلى الأرض تأكيدًا لملك طالوت ومعجزة لنبيهم. .

وقيل: إن التابوت صندوق يضعه نبي زمانهم خاليًا ثم يغلق فإذا فتحوه وجدوا فيه كتابًا يدل على أن ملكهم هو طالوت، وأن الله سينصرهم على عدوهم.

وقيل: إن التابوت فيه بقايا من تراث موسى وهارون كعصاه وبعض ثيابه وجزء من المن الذي كان ينزل على بني إسرائيل.

(١) البقرة: ٢٤٦ ـ ٢٤٨ .

٣ ـ إن التفريق بين النبي والرسول بمسألة التبليغ وعدمه لا يعرف اصطلاحًا شرعيًا، ولا يعرف كمعنى لغوي، فإن اشتقاق لفظ النبي من النبأ يقال: نَبَأَ ونَبَأً، وأنبأ أي أخبر، فالنبي فعيل بمعنى فاعل أي منبئ بما أطلعه الله تعالى عليه، ولو قلنا إنه فعيل بمعنى مفعول أي منبأ بالغيب أي أنبأه الله، فهذا لا ينافي التبليغ والإرسال.

ولو كان لفظ النبي مأخوذًا من النبوة (بفتح وسكون) وهو ما ارتفع من الأرض، فالمعنى أن النبي مرتفع عن سائر الخلق بما اصطفاه الله به من الوحي والشرع فهو يؤكد الرسالة والتبليغ..

ومن هنا جاءت مذاهب أخرى تحاول أن توجد فرقًا بين النبي والرسول،

قال الإمام الرازي: ذكروا في الفرق بين الرسول والنبي أمورًا:

أحدها: أن الرسول من الأنبياء من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه، والنبي غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب وإنما أمر أن يدعو إلى كتاب من قبله.

الثاني: أن من كان صاحب المعجزة وصاحب الكتاب، ونسخ شرع من قبله فهو الرسول، ومن لم يكن مستجمعًا لهذه الخصال فهو النبي غير الرسول..

الثالث: أن من جاءه الملك ظاهرًا وأمره بدعوة الخلق فهو الرسول، ومن لم يكن كذلك بل رأى في النوم كونه رسولاً أو أخبره أحد من الرسل بأنه رسول الله فهو النبي الذي لا يكون رسولاً.

وقد علق الإمام الرازي على الرأي الأول والثاني بقوله:

وهؤلاء يلزمهم ألاّ يجعلوا إسحق ويعقوب وأيوب ويونس وهارون وداود وسليمان رسلاً لأنهم ما جاءوا بكتاب ناسخ.

وعلق على الرأي الثالث بقوله: وهذا هو الأولى [١].

ونحن نرى أن هذه الأقوال لا يساندها نص ولا يساعد عليها دليل، وهي افتراضات لم تتلمس الواقع، فدعوى أن الرسول من له كتاب ينفيها قول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ [٢].

وقوله جل شأنه: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[٣].

وقوله: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [٤]. وقوله: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [٥].

فإسماعيل وإلياس ولوط ويونس بنص القرآن مرسلون، وليس لهم كتاب..

---

(١) التفسير الكبير (ج ٢٣ ص ٥٠).
(٢) مريم: ٥٤.
(٣) الصافات: ١٢٣.
(٤) الصافات: ١٣٣.
(٥) الصافات: ١٣٩.

ودعوى ضرورة الجمع بين المعجزة والكتاب، ونسخ الشريعة السابقة في حق الرسول ينفيها أيضًا قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾(١)

- ووجه الاستدلال أن الله تعالى ذكر أن الوحي المنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو على شاكلة الوحي المنزل على جميع الأنبياء، وحيث كان محمد رسولاً فجميع هؤلاء رسل، بل إن هؤلاء الذين وصفهم الله تعالى بالأنبياء في قوله «والنبيين من بعده» قد وصفهم أيضًا بالرسالة في الآية التالية مباشرة ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾(٢) .

فكل هؤلاء الذين ذكروا في الآية السابقة أنبياء ورسل بنص القرآن، وفيهم من ليس له كتاب كإسماعيل وإسحق ويعقوب وأيوب ويونس، وفيهم من لم ينسخ الشرع السابق بل جاء مجددًا له كسليمان ويونس مثلاً.

والقول بأن مجيء الملك ظاهرًا دلالة على الرسالة، ورؤيته منامًا دليل على النبوة، مجرد افتراض لا مسوغ له ولا دليل عليه، بل إن العبارة التي ساقها الإمام الرازي تكاد تكون متناقضة، ولنعد قراءتها:

«ومن لم يكن كذلك بل رأى في النوم كونه رسولاً، أو أخبره أحد من الرسل بأنه رسول الله فهو النبي الذي لا يكون رسولاً» .

كيف يرى في النوم كونه رسولاً ثم لا يكون رسولاً؟!

وكيف يخبره أحد الرسل بأنه رسول الله ثم لا يكون رسولاً؟!

والذي نراه أقرب إلى التصور أن الرسول والنبي كليهما يطلق على شخص واحد، وكل رسول نبي وكل نبي رسول، وعطف أحدهما على الآخر لا يدل على التغاير في الماصدق، وإنما يدل على اختلافهما في المفهوم(٣) ، كاللفظين المترادفين (إنسان وبشر) يطلقان على شخص واحد كمحمد أو أحمد أو إبراهيم، ولكن لكل منهما وجه دلالة على معنى خاص، به كان الشخص إنسانًا أو بشرًا. .

---

(١) النساء: ١٦٣ . (٢) النساء: ١٦٤ .

(٣) دلالة المفهوم هي دلالة اللفظ على المعنى المقصود الذي وضع له اللفظ، ودلالة الماصدق هي دلالة اللفظ على الأفراد الذين يطلق عليهم هذا اللفظ، فلفظ إنسان مفهومه أنه حيوان ناطق، ويصدق هذا اللفظ على أفراده مثل محمد وأحمد وهند وسعاد . . إلخ.

وقد ذهب بعض المحققين إلى أنه لا ترادف في اللغة العربية، وإنما لكل لفظ دلالته الخاصة.

ومن هنا فالنبي من الإنباء، وهو من أنبأه الله أو أنبأ عن الله، والرسول من الإرسال وهو المبعوث من الخالق إلى الخلق، فالنبوة تمثل علاقة بين الإنسان المصطفى والخالق، والرسالة تمثل علاقة بين الإنسان المصطفى والخلق.

أو أن النبي يمثل وصفًا شخصيًا للإنسان المصطفى لارتفاع منزلته، وسمو مكانته، من النبوة - بفتح فسكون - وهي ما ارتفع من الأرض. . والرسول يمثل تتابع الوحي على الإنسان المصطفى، من قولهم رسل اللبن إذا تتابع دره.

وإن عقيدة المؤمن تقوم على الإيمان بمن اصطفاهم الله تعالى للبلاغ بلا تفريق، وجاء التعبير القرآني مرة بالرسل ومرة بالنبيين، قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ (١) .

وقال جل شأنه: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٢) .

فالنبي والرسول كلاهما بمعنى واحد.



(١) البقرة: ٢٨٥ .

(٢) البقرة: ١٣٦ .

التفاضل بين الأنبياء

أولو العزم:

الأنبياء جميعًا لهم علو المكانة، وسمو المنزلة، ويمثلون الإنسان الكامل، فقد اختارهم الله تعالى واصطفاهم وأدبهم فأحسن تربيتهم..

ومع ذلك فإن بعضهم أفضل من بعض بنص قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾(١) .

وقال جل شأنه: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ (٢) .

فأفضل الأنبياء خمسة هم:

محمد، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام.

وقد ورد النص على هؤلاء الخمسة في آيتين كريمتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ (٣) .

فقد ذكرت الآية أن الله تعالى أخذ العهد والميثاق من الأنبياء كي يقيموا الدين ويبلغوا الرسالة وينصحوا الأمة، ثم خصت بالذكر خمسة أنبياء من باب عطف الخاص على العام تأكيدًا لشرف الخاص، ورتبتهم ترتيب الفضل..

الثانية: قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾(٤) .

والملاحظ أن هذه الآية بدأت بنوح عليه السلام على خلاف الآية السابقة التي بدأت بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وحكمة ذلك ـ كما يقول الإمام الزمخشري ـ: أن مورد هذه الآية على طريقة خلاف طريقة تلك، وذلك أن الله تعالى إنما أوردها لوصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة، فكأنه قال: شرع لكم الدين الأصلي الذي بُعث عليه نوح في العهد القديم، وبعث عليه

(١) البقرة: ٢٥٣ .
(٢) الإسراء: ٥٥ .
(٣) الأحزاب: ٧ .
(٤) الشورى: ١٣ .

أفضل الأنبياء:

الفضل مراتب، والكمال درجات، فإذا كان الأنبياء جميعًا أفضل البشر فإن أولي العزم من الرسل أفضل الأنبياء، وإن محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ أفضل أولي العزم، فهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيد الأنبياء وخير خلق الله.

وقد جاء في صحيح الحديث: **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مُشَفَّع»**(١).

وأخرج البخاري في صحيحه بسنده عن جابر بن عبد الله أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: **«أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»**.

والعدد لا مفهوم له، والمراد تعداد الخصائص المحمدية.

وفي صحيح مسلم بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«فضلت على الأنبياء بست، أعطيت جوامع الكلم، ونصرتُ بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون»**

وبملاحظة ما اتفق عليه الحديثان وما انفرد به كل منهما تكون الخصائص المحمدية هي:

الأولى: النصر بالرعب مسيرة شهر، بمعنى أن الله تعالى يقذف في قلوب الأعداء الرعب فيجبنون عن ملاقاة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ويفرون عن مواجهته رغم بعد المسافة بينهما، فهناك معارك حربية قاتل فيها رسول الله، وهناك معارك أخرى استسلم فيها الأعداء دون قتال . .

وعلى سبيل المثال فإن غزوة تبوك في العام التاسع للهجرة انتهت بتفرق الروم رعبًا من المسلمين، وحقق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ نصرًا عظيمًا في أرض الشام.

الثانية: الأرض كلها مسجد وطهور، فالمسلم يصلي حيث أدركته الصلاة في أي بقعة من أرض الله الواسعة، فالأصل في الأرض الطهارة حتى يثبت العكس، وإذا فقد المسلم الماء حسًا أو معنى للوضوء والغسل تيمم صعيدًا طيبًا.

أما غير المسلم فترتبط عبادته بأماكن خاصة يشيدونها لا تجوز الصلاة في غيرها.

---

(١) أول شافع: أول طالب للشفاعة، وأول مشفع: أول مقبول الشفاعة.

الثالثة: حل الغنائم، وذلك أن الله تعالى شرع الجهاد في الإسلام، وأذن في رد العدوان، وغالبًا تنتهي المعارك بغنائم يتركها المهزوم، كالسلاح والعتاد والأموال، فهذه تعد غنيمة للمنتصر، وقد قسمها الله تعالى في كتابه الكريم فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (١) .

أما الأنبياء السابقون فبعضهم لم يقاتل ولم يشرع لهم الجهاد؛ كهود، وصالح، وشعيب، وإبراهيم، ولوط، وزكريا، ويحيى، وعيسى عليهم السلام.

وبعضهم جاهد ولم تحل لهم الغنائم، بل كانت تترك حيث هي وتحرق، كموسى، وداود، وسليمان عليهم السلام.

الرابعة: الشفاعة العظمى، وهي الشفاعة يوم القيامة لفصل الخطاب بين الخلائق أجمعين حتى يستريحوا من أهوال الموقف، ثم تتوالى بعد ذلك الشفاعات الصغرى للأنبياء والأولياء والصالحين..

الخامسة: عموم الرسالة، فرسالة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عامة إلى الثقلين من الإنس والجن، وهي تتخطى حجب الزمان والمكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها..

ولم يتحقق عموم الرسالة زمانًا ومكانًا لنبي من الأنبياء قبل سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فقد بعث كل نبي إلى قومه خاصة ولفترة زمنية محددة.

السادسة: ختم النبوة، فلقد انقطع الوحي بعد سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا نبي يعقبه، ولا نسخ لشريعته، وتمت الرسالات الإلهية إلى بني البشر..

السابعة: جوامع الكلم، فلقد أوتي سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحكمة في القول والعمل، ومنحه الله قوة البيان وحجته، وسلامة التعبير ودقته، وروعة الكلام وبلاغته.. بما يفوق سائر ما منحه الله لباقي الأنبياء في هذا المجال.

هذا، والخصائص المحمدية كثيرة متعددة، قال الإمام ابن حجر:

«ويمكن أن يوجد أكثر من ذلك لمن أمعن التتبع، وقد ذكر أبو سعيد النيسابوري في كتاب «شرف المصطفى» أن عدد الذي اختص به نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الأنبياء ستون خصلة»(٢) .

(١) الأنفال: ٤١ .

(٢) فتح الباري، شرح صحيح البخاري جـ١ صـ ٤٣٩.

حكم التفضيل:

ما ورد من النصوص نهيًا عن التفضيل بين الأنبياء فمحمول على اعتقاد جانب النقص في حق بعضهم، وهو كفر يتنزه عنه المسلم. لكن اعتقاد فضل الجميع ثم تمايزهم في هذا الفضل فلا حرج فيه شرعًا بل هو منطوق النصوص.

فعندما استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال اليهودي في قسم يقسمه: لا والذي اصطفى موسى على العالمين.

فرفع المسلم يده فلطلم بها وجه اليهودي، فقال: أي خبيث، وعلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ أي وهل اصطفى موسى على محمد عليهما الصلاة والسلام؟ فجاء اليهودي إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ واشتكى، فقال الرسول: **«لا تفضلوا بين الأنبياء»** وفي رواية: **«لا تفضلوني على الأنبياء»**.

والمعنى: أن حكم التفضيل إنما هو لله عز وجل، وليس لبشر، وما علينا إلا الانقياد والتسليم، وليس التفضيل أمر عصبية وعرق وإنما هو أمر دين وخلق، وليس التفضيل تخاصمًا وتشاجرًا، وإنما هو تواضع وشكر لله.

وإذا كان سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيد ولد آدم فلا يحق لأحد أن يتخذ من ذلك وسيلة تعصب وبغض وكراهية.

وفي حديث آخر صحيح عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال ـ يعني الله تبارك وتعالى ـ: **«لا ينبغي لعبد لي ـ وفي رواية ـ لعبدي أن يقول: أنا خير من يونس بن متّى عليه السلام»**.

وللعلماء رأيان في مرجع الضمير «أنا»:

الأول: أن الضمير على المتكلم، أي لا ينبغي لعبد ما أن يقول إنه خير من يونس بن متّى، فقد يتوهم بعض الجهال عندما يدرك بسطة علم أوعبادة أنه وصل إلى درجة يفوق فيها نبي الله يونس عليه السلام، فإن الإنسان مهما بلغ في عبادة أو علم لن يصل إلى درجة النبوة، فلا شيء يعدلها، والنبي ـ أي نبي ـ هو المثل الأعلى والعبد المصطفى الذي يفضل جميع البشر.

الثاني: أن الضمير يعود إلى سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، والمعنى أنه لا ينبغي لأحد أن يعتقد تفضيلاً لسيدنا رسول الله يجعله يحقر يونس بن متّى عليه السلام، نتيجة موقفه حين ذهب مغاضبًا وترك قومه، فما جرى ليونس عليه السلام لا يحط مثقال ذرة من النبوة، فحسنات الأبرار سيئات المقربين.

أصول الرسالات:

وقد حدد القرآن المجيد حقيقة الإيمان الواجب شرعًا على كل مكلف في كثير من آياته، وعلى سبيل المثال قال تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[1] . فقد بدأت هذه الآية الكريمة بإثبات الإيمان بالله تعالى باعتباره أصلاً للإيمان بالنبوة، ثم قدمت الإيمان بالوحي لسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ باعتباره المصحح لأوهام أهل الكتاب وتحريفاتهم، ثم ذكرت الإيمان بالوحي لإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط باعتبارهم منشأ أهل الكتاب من يهود ونصارى، وإليهم يرجع نسبهم ودينهم، ثم خصصت ما أوتي موسى وعيسى باعتبارهما أصحاب الرسالتين الأخيرتين قبل رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فاليهود يقفون عند شريعة موسى، والنصارى يقفون عند شريعة عيسى.

ثم عممت الآية ضرورة الإيمان بجميع الأنبياء السابقين، مَن نعرف ومَن لا نعرف على وجه الإجمال.. ثم جاءت الآية التالية عقب هذه الآية فأعلنت الحقيقة الكبرى المتمثلة في طريق النجاة الأوحد والوحيد فقالت: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[2] .

والأنبياء يكملون الرسالة الإلهية للبشر، كل في زمانه ومكانه حتى وصلت الرسالة إلى خاتمها ببعثة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فهم لبنات بناء عال وصرح مشيد، يشد بعضه بعضًا، وفي صحيح الحديث يقول عليه الصلاة والسلام: «**مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه، إلا موضع لبنة فيه، فجعل الناس يطوفون به ويتعجبون ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين**» .

إن الرسالات الإلهية التقت كلها على أصول العقيدة والعبادة والأخلاق، فكل نبي دعا قومه إلى التوحيد الخالص.. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[3] .

واشتركت العبادة والأخلاق في إطارها العام بين جميع الرسل.. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[4] .

---

(١) آل عمران: ٨٤ .
(٢) آل عمران: ٨٥ .
(٣) الأنبياء: ٢٥ .
(٤) البقرة: ٨٣ .

وهذا المعنى هو المشار إليه في قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «**نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات**[1] **، ديننا واحد**» .

وما وراء ذلك من تفصيلات الأحكام والعبادات والشرائع فتلك قضية تخضع لظروف الزمان والمكان، فما يصلح لأمة قد لا يتناسب مع أمة أخرى، بل ما يصلح لأمة في زمن قد لا يستمر لزمن آخر.

قال تعالى: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا**﴾[2] .

والحكمة واضحة في نسخ الشرائع بعضها لبعض، فإن الطبيب ـ ولله المثل الأعلى ـ قد يصف دواء لمريض ولا يصفه لمريض آخر يتشابه معه في المرض، وقد يصف دواء لمريض في وقت دون آخر، ولمدة لا يتجاوزها . .

فالله تعالى له الخلق والأمر، وهو أعلم بعباده، وله الحكمة البالغة، قال تعالى: ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾[3] .

فرسالات الله تمثل أطوار مناهج التربية الإلهية لبني الإنسان . . فقد حرمت رسالة موسى عليه السلام أشياء كثيرة على بني إسرائيل . . قال تعالى: ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**﴾[4] .

ثم جاء عيسى عليه السلام مناديًا في قومه ـ كما حكى القرآن ـ: ﴿**وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ**﴾[5] .

وعلى حين فترة من الرسل أشرقت الأرض بنور ربها، وجاء محمد ـ صلى الله عليه وسلم رسولا نبيًا: ﴿**وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾[6] .

* * *

---

(١) بنو العلات: أولاد الرجل من نسوة شتى.

(٢) المائدة: ٤٨ . (٣) الملك: ١٤ .

(٤) الأنعام: ١٤٦ . (٥) آل عمران: ٥٠ .

(٦) الأعراف: ١٥٧ .

الكتب المقدسة

الإيمان بالكتب في القرآن:

أنزل الله تعالى على بعض المصطفين من عباده المرسلين كتبًا تتضمن المنهج الإلهي لإصلاح الحياة والأحياء، والإيمان بهذه الكتب جزء من قضية الإيمان العام الذي يتحقق به إسلام المسلم وإيمانه . .

وقد أكد القرآن المجيد ضرورة الإيمان بما أنزل الله من كتب في مواطن متعددة من المصحف الشريف . . قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[1] .

فإيمان الرسول والمؤمنين ثابت ومتحقق بهذه الأركان جميعًا . .

وفي تفصيل محدد يقول الله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [2] .

فالإيمان مرتبط بكل ما أنزل الله على جميع أنبيائه، ولا يمكن تجزئة هذا الإيمان أو الاختيار فيه والانتقاء . .

وقد أطلق القرآن لفظ «الكتاب» على ما جاء به الأنبياء، لأنه يكتب ويحفظ ويتداول، فهو مكتوب ومسجل في قراطيس وألواح.

والقرآن نفسه كتاب بل هو الكتاب الخالد الذي لا يعتريه الشك والارتياب . . قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [3] . ولعلماء الوقف في هذه الآية موضعان:

الأول: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك فيه، ثم يستأنف ويقرأ ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي هو هدى.

الثاني: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ﴾ أي هو الكتاب الحق بلا منازع، ثم يستأنف ويقرأ ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فيكون الجار والمجرور خبرًا مقدمًا.

ولأهمية القرآن العظمى جاء وصفه بأنه الكتاب المبين، في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [4] . لوضوح دلائله، وإعجازه ومنهجه.

---

(١) البقرة: ٢٨٥ . (٢) البقرة: ١٣٦ .
(٣) البقرة : ٢ . (٤) القصص: ٢ .

وبأنه الكتاب العزيز، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[١]. لتفرده في خصائصه الإعجازية والتشريعية والعلمية.

وبأنه الكتاب الحكيم في قوله تعالى: ﴿يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [٢]. لاشتماله على الحكمة البالغة في كل ما جاء به.

وبأنه الكتاب المبارك، في قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٤].

وفي قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[٥].

إن منافع القرآن وآثاره الإيجابية لإصلاح الحياة وبناء المجتمع وصنع الحضارة أعمق وأبقى وأعز من كل ما عرفه البشر وتنادى به المصلحون.

وجاء وصف التوراة بالكتاب في كثير من آيات القرآن المجيد، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٦].

وأطلق القرآن لفظ «الكتاب» على ما يشمل التوراة والإنجيل، في آيات متعددة، منها قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [٧].

وخاطب القرآن اليهود والنصارى بأنهم أهل الكتاب، فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾[٨].

وفي وصف عام لكل ما تلقاه الأنبياء بأنه كتاب، جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ [٩].

والوحي الإلهي الذي جاء به الأنبياء كان مستحفظًا لدى الأحبار والرهبان، كي يبلغوه للناس، ويتحملوا أمانة نشره بين أقوامهم، لكنهم خانوا الأمانة ونقضوا العهد..

---

(١) فصلت: ٤١، ٤٢.
(٢) يس: ١، ٢.
(٣) الأنعام: ٩٢.
(٤) الأنعام: ١٥٥.
(٥) ص: ٢٩.
(٦) البقرة: ٥٣.
(٧) البقرة: ١٤٦.
(٨) المائدة: ١٥.
(٩) آل عمران: ٨١.

قال تعالى: ﴿وإنَّ منهُمْ لفريقًا يلْوُون ألْسنتهم بالكتاب لتحْسبُوهُ من الْكتاب وما هُو من الْكتاب ويقُولُون هو منْ عند الله وما هُو منْ عند الله ويقُولُون على الله الْكذب وهُمْ يعْلمُون﴾ (١) .

وينفرد القرآن المجيد بأن الله تعالى تولى حفظه والعناية به إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وإذا أراد الله أمرًا يسر له أسبابه.. قال تعالى: ﴿إنَّا نحْنُ نزَّلْنا الذِّكْر وإنَّا لهُ لحافظُون﴾ (٢) .

ولذا كان القرآن مهيمنًا على ما سبقه من كتب، يرجع إليه في الحل والحرمة، ويهرع إليه في قضايا الإيمان والغيب، ويلتزم به العالمون في نظام حياتهم ومنهج عبادتهم، وهو الفيصل في أمر المعاش والمعاد.. قال تعالى: ﴿وأنزلْنا إليْك الْكتاب بالْحقّ مُصدّقًا لّما بيْن يديْه من الْكتاب ومُهيْمنًا عليْه فاحْكُم بيْنهُم بما أنزل اللّهُ ولا تتّبعْ أهْواءهُمْ عمّا جاءك من الْحقّ﴾ (٣) .

إن الإيمان بما سبق من كتب إنما هو في حال نقائها الأول وصفائها الإلهي قبل أن تنال منها أيدي التحريف والتبديل والتغيير.

وما يسمى الآن بالتوراة أو الإنجيل، ويتداول بين اليهود والنصارى ويطلقون عليه الكتاب المقدس، ليس هو بالكتاب الحق، وليس هو بالوحي الصحيح، وليس هو بعينه ما بلغه موسى وعيسى عليهما السلام.

وما كان فيهما مما يخالف القرآن رددناه وأيقنا أنه تحريف باطل، وما كان فيهما مما يحتمل الصدق والكذب توقفنا في رده وقلنا: ﴿آمنَّا بالَّذي أُنزل إليْنا وأُنزل إليْكُمْ وإلهُنا وإلهُكُمْ واحدٌ ونحْنُ لهُ مُسْلمُون﴾ (٤) .

والإيمان بالكتب المقدسة يكون تفصيلاً فيما فصله القرآن، وإجمالاً فيما أجمله القرآن، والكتب التي جاء ذكرها بالتعيين هي: صحف إبراهيم، وتوراة موسى، وزبور داود، وإنجيل عيسى.

وهذه كلمة عامة عن كل منها:

صحف إبراهيم: ورد ذكر صحف إبراهيم في القرآن مرتين:

الأولى: في سورة النجم، في قوله تعالى: ﴿أمْ لمْ يُنبَّأْ بما في صُحُف مُوسىٰ (٣٦) وإبْراهيم الَّذي وفَّىٰ (٣٧) ألاَّ تزرُ وازرةٌ وزْر أُخْرىٰ (٣٨) وأن لَّيْس للإنسان إلاَّ ما سعىٰ (٣٩) وأنَّ سعْيهُ سوْف يُرىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزاهُ الْجزاء الأوْفىٰ (٤١) وأنَّ إلىٰ ربّك الْمُنتهىٰ (٤٢) وأنَّهُ هُو أضْحك وأبْكىٰ (٤٣) وأنَّهُ هُو أمات وأحْيا﴾ (٥) .

---

(١) آل عمران: ٧٨ . (٢) الحجر: ٩ . (٣) المائدة: ٤٨ .

(٤) العنكبوت: ٤٦ . (٥) النجم: ٣٦ ـ ٤٤ .

والثانية: في سورة الأعلى، في قوله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ (١).

والملاحظ أنه في كلا الموضعين جاء التأكيد على أن صحف إبراهيم وموسى تضمنت قضايا الدين واليوم الآخر على سواء، فالإنسان مسئول مسئولية كاملة عن أعماله في الدنيا، وسيلقى جزاءها في الآخرة، وعلى المرء أن يدرك الحقيقة الغائبة وهي أن بقاءه في الدنيا مرهون بإرادة الله تعالى وإلى أجل مسمى، وأن النشأة الأخرى حق، والحياة فيها دائمة خالدة، والناس يومئذ فريقان، فريق في الجنة يضحك سرورًا، وفريق في السعير يبكي مذمومًا مدحورًا.

التوراة:

أنزل الله تعالى التوراة على موسى فيها الهدى والنور لبني إسرائيل وهي الصحف أو الألواح التي تلقاها عندما جاء لميقات ربه..

قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ (٢).

وتتضمن التوراة أحكامًا تشريعية مختلفة، ففيها العبادات والمعاملات قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٣).

وفيها أحكام العقوبات، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٤).

وفيها القصص والإخبار بالغيب، قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (٥).

وكانت أحكام التوراة في مجملها شديدة تعالج قوة بني إسرائيل وتمردهم وطغيانهم، فحرمت عليهم أشياء كثيرة من باب التأديب، والعقاب والزجر، قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ

---

(١) الأعلى: ١٤ ـ ١٩.
(٢) الأعراف: ١٤٥.
(٣) البقرة: ٨٣ ـ ٨٤.
(٤) المائدة: ٤٥.
(٥) الإسراء: ٤.

الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١) .

وهذه الطيبات التي حرمت على اليهود فصلها القرآن في سورة الأنعام فقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٢) .

ومن المشهور تحريم الصيد عليهم يوم السبت، وقد ابتلاهم الله به وتحايلوا عليه، قال الله تعالى: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٣) .

وقد سجل القرآن على اليهود كفرهم بالتوراة وانحرافهم عنها وتبديلهم لها، وشبههم بما يليق بحالهم فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٤) .

الزبور:

جاء داود عليه السلام في سلسلة الأنبياء بعد موسى عليه السلام، ومنحه الله تعالى كتابًا هو الزبور، قال جل شأنه: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ (٥) .

وقد اشتمل الزبور على مواعظ وحكم ولم يتضمن تشريعًا وأحكامًا، فإن شريعة موسى هي التي ظلت سائدة حتى مبعث النبوة الخاتمة، وقد تفطن الجن لذلك فقالوا ـ كما حكى القرآن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ (٦) ، ولم يقولوا من بعد عيسى أو داود.

وسجل القرآن من مواعظ الزبور وحكمه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (٧) .

والمراد بقوله ﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ أي من بعد التوراة، فكل ما جاء به الأنبياء فهو ذكر وتذكير، وفسر الذكر هنا بالتوراة لأنها أقرب عهدًا، قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ (٨) .

وكلمة الزبور والزبر في اللغة العربية تعني كتب المواعظ والحكم كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (٩) .

---

(١) النساء: ١٦٠ ـ ١٦١ .
(٢) الأنعام: ١٤٦ .
(٣) الأعراف: ١٦٣ .
(٤) الجمعة: ٥ .
(٥) النساء: ١٦٣ .
(٦) الأحقاف: ٣٠ .
(٧) الأنبياء: ١٠٥ .
(٨) المائدة: ١٣ .
(٩) آل عمران: ١٨٤ .

وكما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [(١)] . أي كتب الأنبياء السابقين، وتعني كلمة الزبور والزبر أيضًا القطع والأجزاء كما في قوله تعالى: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ [(٢)] أي قطع الحديد الكبيرة.

وتعني كذلك الأحزاب والفرق كما في قوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [(٣)] .

الإنجيل:

أنزل الله تعالى على عيسى عليه السلام الإنجيل فيه الهدى والنور لبني إسرائيل، وهو مصدق للتوراة التي تعلمها المسيح في صغره، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [(٤)] .

ولم يكن الإنجيل ناسخًا للتوراة إلا في قضايا قليلة، وظلت شرائع التوراة وأحكامها هي السائدة، قال الله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [(٥)] .

وقد ابتدع النصارى الرهبانية ولم تكن موجودة في الإنجيل، وظنوا أنها تقربهم إلى الله، ولكنهم انحرفوا بها وأساءوا فيها، وتحولت الأديرة إلى أماكن للفسق والفجور، وأصبح الرهبان طغاة ومترفين، واحتكروا سلطة التشريع، ونصبوا أنفسهم أربابًا من دون الله..

قال الله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [(٦)] .

والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ استثناء منقطع، والمعنى أنهم ابتدعوا الرهبانية ابتغاء رضوان الله ولم يفوا بما ألزموا أنفسهم به، وقال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [(٧)] .

---

(١) الشعراء: ١٩٦ .
(٢) الكهف: ٩٦ .
(٣) المؤمنون: ٥٣ .
(٤) المائدة: ١١٠ .
(٥) آل عمران: ٥٠ .
(٦) الحديد: ٢٧ .
(٧) التوبة: ٣٤ .

تنبيه قرآني:

هناك نقطة ذات بال أكدها القرآن المجيد كثيراً، وهي أن إبراهيم وإسحق ويعقوب ليسوا يهوداً ولا نصارى، وإنما هم أنبياء اصطفاهم الله قبل أن تنزل التوراة والإنجيل، ولا يحق لليهود أو النصارى أن ينتسبوا نسب إيمان وتقوى إلى هؤلاء الأخيار المصطفين، قال تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين (٦٧) إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾ (١) .

وقال جل شأنه: ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون﴾ (٢) .

وإذا كان اليهود فيما مضى ينتسبون نسباً عرقياً إلى يعقوب الملقب بإسرائيل حتى صاروا معروفين بأنهم بنو إسرائيل، فتلك نسبة مادية لا وزن لها عند الله في غية الإيمان الصحيح، وهي نسبة لا تزيد عن نسبة قابيل إلى آدم، ونسبة أبي لهب إلى قريش، ونسبة الشيطان إلى الجن.

إن هناك ظالمين في ذرية الأنبياء حرمهم الله الولاية والنصرة، قال تعالى: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾(٣)

وأكد القرآن أن في ذرية إبراهيم وإسحق من يكون ظالماً مبيناً فقال: ﴿وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾(٤) .

ولم يكتف اليهود والنصارى بمزاعمهم الفاسدة حول نسبهم إلى إبراهيم وإسحق، بل تمادوا في طغيانهم، وخصوا أنفسهم ببنوة الله دون العالمين، وكذبهم القرآن، وقال: ﴿بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾(٥) .

* * *

(١) آل عمران: ٦٧ ـ ٦٨ .
(٢) البقرة: ١٤٠ .
(٣) البقرة: ١٢٤ .
(٤) الصافات: ١١٣ .
(٥) المائدة: ١٨ .

الفصل الثالث

المعجزة وخوارق العادات

- المعجزة .
- ألوان من خوارق العادات .

المبحث الأول:

المعجزة

- حكمة المعجزة .
- المعجزة في اللغة .
- المعجزة في الاصطلاح .
- نماذج من المعجزات:
  - معجزة نبي الله صالح عليه السلام.
  - معجزات موسى عليه السلام.
  - معجزات داود عليه السلام.
  - معجزات سليمان عليه السلام.
  - معجزات عيسى عليه السلام.
- تساؤلات .

حكمة المعجزة

رتب الله تعالى الكون والكائنات على نظام محكم ونواميس ثابتة، عبر عنها القرآن المجيد بقوله ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ (١) ، وبقوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٣٨ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٢) .

وتظل النواميس ثابتة لا ينقضها شيء غير إرادة خالقها ومدبر أحوالها والمهيمن على شئونها، وهو الله عز وجل، فالأسباب والمسببات والنواميس قائمة بأمر الله حتى يخرقها الله معجزة لنبي، أو كرامة لولي، أو إنهاء لهذا الكون وتبديلاً للسموات والأرض.

فعندما يصطفي الله تعالى من عباده رسلاً يبلغون أحكامه وشرائعه إلى خلقه، فلا بد لهم من دليل يقدمونه للناس يؤكد دعوى الرسالة ويوجب قبول أقوالهم والاقتداء بهم.

هذا الدليل الذي يقدمه الرسل إلى أقوامهم، يسمى في علم العقيدة معجزة، فالمعجزة أشبه بالبطاقة أو الجواز الذي يحمله الشخص لإثبات هويته.

وهذه المعجزة المؤيدة للرسول منزلة منزل القول: صدق عبدي فيما يبلغ عني، فالله تعالى يلفت أنظار عباده إلى ضرورة تصديق هذا الإنسان المصطفى للرسالة بهذا الأمر الخارق للعادة الذي أجراه الله على يديه.. وقد جرت عادة الله تعالى وسنته أنه لا يؤيد الكاذب بل يفضحه ولا يمهله ولا تقع على يديه خوارق العادات المؤيدة، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (٣) .

فالله تعالى لا يمهل من يكذب في بعض الرسالة فما بالك بمن يكذب الرسالة كلها ويتقولها بأجمعها؟

فالحكمة الإلهية تمنع التسوية بين الصادقين والكاذبين، أو بين الأخيار والأشرار، أو بين الأطهار والفجار، قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٤) .

---

(١) الملك: ٣ .
(٢) يس: ٣٨ ـ ٤٠ .
(٣) الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧ .
(٤) الجاثية: ٢١ .

المعجزة في اللغة

قال سعد الدين التفتازاني: لفظ المعجزة مأخوذ من العجز المقابل للقدرة.

وحقيقة الإعجاز إثبات العجز، استعير لإظهاره، ثم أسند مجازًا إلى ما هو سبب العجز، وجعل اسمًا له، فالتاء للنقل من الوصفية إلى الاسمية كما في الحقيقة، وقيل للمبالغة كما في العلاَّمة [١].

ولتوضيح ذلك نقول:

الإعجاز في اللغة إثبات العجز، يقال: أعجزه الشيء أي فاته ولم يدركه، وأعجزه فلان أي صيره عاجزًا.. هذا هو المعنى اللغوي.

وعندما يقال: أعجز القرآن العرب، لا يراد به أن القرآن أصابهم بالعجز، وإنما يراد به أن القرآن أظهر عجزهم الكائن فيهم حيال الأمر الخارق للعادة الذي يظهره الله تعالى على يدي مدعي النبوة تصديقًا في دعواه.

فإظهار العجز شبه بإثباته بجامع عدم القدرة في كل، ثم ترك المشبه به وهو الإثبات وأريد الإظهار، وهذه هي الاستعارة [٢].

وإسناد الإعجاز إلى القرآن مجاز آخر لأن الأصل أن الله تعالى هو الذي أظهر عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن، فعندما يقال: أعجز القرآن العرب يكون ذلك مجازًا علاقته السببية، فالقرآن سبب لإظهار الله عجز العرب [٣].

فالأمر الخارق للعادة موصوف بأنه معجز.

لكن هذا الوصف صار اسمًا لهذا الأمر الخارق أطلق عليه وعرف به اصطلاحًا.

ومن هنا لحقته التاء فصار معجزة، فالتاء للنقل من الوصفية إلى الاسمية كما في الحقيق والحقيقة، فالحقيق وصف والحقيقة اسم.

وقد تكون التاء التي لحقت لفظ «المعجز» للمبالغة فاللفظ باق على الوصفية كما في العلام والعلاَّمة فكلاهما وصف لكن العلامة أبلغ..

واختصت الهاء للمبالغة لأنها غاية الصوت ومنتهاه لأنها من أقصى الحلق من حيث المخرج.

---

(١) شرح المقاصد ج ٢ ص ١٣٠ .

(٢) الاستعارة هي استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأول.

(٣) المجاز هو إسناد الفعل أو معناه إلى غير ما هو له عند المتكلم لعلاقة وقرينة.

هذا ولم يرد لفظ المعجزة في القرآن الكريم بالمعنى الاصطلاحي وجاء بديلاً عنه الآية والبينة والبرهان..

قال تعالى: ﴿سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة﴾ (١) ، أي معجزة واضحة.

وقال جل شأنه: ﴿جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ (٢) ، أي المعجزات الواضحات.

وقال سبحانه: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم﴾ (٣) ، أي معجزة دالة على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

فالمعجزة لفظ وضعه جمهور العلماء بضوابطه للدلالة على برهان النبوة وحجتها، ولا مشاحة في الاصطلاح، فكل معجزة هي آية وبينة وبرهان ولا عكس، فقد تكون الآية بمعنى العلامة كما في قوله تعالى: ﴿إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم﴾ (٤) ، أي علامة ملكه.

وقد تكون البينة والبرهان دليلاً عقليًا لا إعجاز فيه، كسائر الأدلة المنطقية..

* * *

(١) البقرة: ٢١١.
(٢) إبراهيم: ٩ .
(٣) النساء: ١٧٤ .
(٤) البقرة: ٢٤٨ .

المعجزة في الاصطلاح

أمر خارق للعادة، يظهره الله تعالى على يدي مدعي النبوة وفق مراده، تصديقًا له في دعواه، مع عجز جميع المكلفين عن المعارضة.

وقد اشتمل هذا التعريف على سبعة ضوابط هي:

١ ـ أن المعجزة أمر، والأمر يشمل القول والفعل والترك، فالمعجزة قد تكون قولاً كالقرآن المجيد، وقد تكون فعلاً مثل انقلاب العصا حية، وقد تكون تركًا مثل عدم إحراق النار لإبراهيم الخليل عليه السلام، فعدم إحراق النار ليس من قبيل الأقوال ولا من قبيل الأفعال، وإنما هو ترك النار لخاصة الإحراق فيها.

٢ ـ أن المعجزة خارقة للعادة أي النواميس التي جرى عليها الكون، ولا تخضع المعجزة لتعلم أو تعليم من البشر، وليس لها قواعد يعرفها البعض أو الكل.

وخرج بهذا القيد السحر والشعوذة، وغرائب المخترعات، فهي تعرف بالتعلم، ولها قواعد يمكن الإلمام بها، ويستطيع كل إنسان أن يكون له نصيب منها بالدراسة والخبرة والممارسة .

٣ ـ أن المعجزة أمر الله تعالى وحده، وهي مختصة به جل شأنه، لا دخل لبشر فيها، فمتى أراد الله تعالى إظهار هذا الأمر الخارق أظهره وإلا فلا، فالمعجزات ليست من فعل الأنبياء وإنما هي فعل الله على أيدي الأنبياء.

٤ ـ أن المعجزة تقع على يدي مدعي النبوة حال دعواه، فالذي يقع على أيدي الأنبياء هو المسمى المعجزة، أما ما يقع قبل وصول الوحي إلى النبي، أو ما يقع على أيدي الأولياء والصالحين وغيرهم فليس يسمى معجزة اصطلاحية، وإن كان خارقًا للعادة، وله أسماء أخرى هي الإرهاص أو الكرامة أو المعونة أو الاستدراج. .

٥ ـ أن المعجزة تقع وفق مراد النبي، فلو ادعى نبي أن معجزته انقلاب العصا حية فانقلبت فأرة فليس هذا دليلاً على نبوته لأن هذا الأمر الخارق للعادة على غير مراده.

وذكر علماء التاريخ أن مسيلمة الكذاب كان يتشبه بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فلما بلغه أن رسول الله بصق في بئر فغزر ماؤه ، بصق هو في بئر فغاض ماؤه بالكلية، وفي أخرى فصار ماؤه أجاجًا، وتوضأ وسقى بوضوئه نخلاً فيبست وهلكت، وأُتي بولدان يبرك عليهم فجعل يمسح رءوسهم، فمنهم من قرع رأسه، ومنهم من لثغ لسانه، ويقال إنه دعا لرجل أصابه وجع في عينيه فمسحهما فعمي. .[١] .

(١) البداية والنهاية - ابن كثير (ج٦ ص ٣٢٧) .

فهذه الخوارق للعادات لا تسمى معجزات لأنها على غير مراده، وإنما تسمى إهانة، أراد الله بها إظهار كذبه . .

٦ ـ أن المعجزة تصدق مدعي النبوة، فمتى وقعت المعجزة على النحو السابق علم منها يقينًا أن الله تعالى يؤيد هذا النبي ويحمله رسالة يجب التصديق بها والعمل بمقتضاها . .

وهناك مبحث لدى علماء الكلام حول كيفية دلالة المعجزة على صدق مدعي النبوة، فمنهم من قال: إن دلالتها دلالة عقلية محضة كدلالة الفعل على وجود الفاعل ودلالة الإحكام والإتقان على علم الصانع . . ومنهم من قال: إن دلالتها دلالة سمعية مرتبطة بالنص المنزل، وبإخبار الوحي على لسان النبي . . ومنهم من قال: إن دلالتها دلالة عادية فقد جرت العادة بتصديق من تقع المعجزة على يديه، وإن كان من الممكن عقلاً أن تقع على يدي الكاذب . . ونحن نرفض الدلالة السمعية لأنها تؤدي إلى الدور الباطل وهو توقف التصديق بالنبي على صدقه في المعجزة وتوقف صدقه على تصديق الناس له . .

ونرفض الدلالة العادية لأن وقوع المعجزة على يدي الكاذب يتنافى مع الحكمة منها، ويؤدي إلى التسوية بين الأخيار والأشرار، ويرجع بالنقص على الفاعل المختار سبحانه وتعالى . .

فلا يبقى إلا أن دلالة المعجزة دلالة عقلية يمتنع التخلف فيها . .(1) .

٧ ـ أن جميع المكلفين يقفون أمام المعجزة حيارى مبهوتين، لا يستطيعون ردها ولا الإتيان بمثلها، ومهما حاولوا فهم عاجزون عن محاكاتها . . وهذا التحدي قد يكون صريحًا في مواجهة المكذبين كما في معجزتي العصا واليد لموسى عليه السلام . . قال تعالى: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ (2) .

وكما في معجزة القرآن العظيم . . قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (3) .

وقد يكتفى في التحدي بقرائن الأحوال كما في سائر الخوارق التي تقع من النبي أمام المؤمنين به لتثبت قلوبهم وتقوى يقينهم وتجدد لديهم دلائل النبوة . .

وذلك كنزول المنّ والسلوى وتظليل الغمام لبني إسرائيل، وكحنين الجذع لسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة.

---

(1) راجع شرح المواقف. للقاضي عبد الرحمن الإيجي (ج٨ ص٢٥٢) ط. دار الكتب العلمية - بيروت.
(2) الأعراف: ١٠٦ ـ ١٠٨ . (3) الإسراء: ٨٨ .

نماذج من المعجزات:

معجزة نبي الله صالح

أرسل الله تعالى صالحًا عليه السلام إلى قبيلة ثمود بين الحجاز والشام، فدعاهم إلى التوحيد الذي قامت عليه دعوة كل نبي، وجاءهم بآية بينة هي ناقة خصها الله بخوارق العادات، إذ انبجست عنها صخرة صماء، وخرجت منها ناقة عشراء، وأخذ عليهم نبيهم العهد أن يذروها تأكل في أرض الله من غير سوء، وأن يكون الماء قسمة بينهم وبينها، وفي يوم شربها يحلبون منها لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين يكفيهم جميعًا، ويكتفون به عن الماء.

ولكن القوم طمسوا أعينهم، وطبع على قلوبهم، فلم يدركوا الإعجاز الإلهي في الناقة فضلاً عن كفرهم بآلاء الله ونعمه التي لا تحصى، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (١) .

هنا انبعث أشقاهم ووقعت الجريمة مقرونة بالتحدي واستحقت ثمود اللعنة.

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (٢) .

* * *

---

(١) الأعراف: ٧٤ .

(٢) الأعراف: ٧٧ ـ ٧٨ .

معجزات موسى عليه السلام

بعث الله تعالى موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه، وكان للسحر في أرض مصر مكانة عالية، وللسحرة مقام رفيع، فكانت معجزة موسى عليه السلام شيئًا يفوق السحر ويعلو عليه..

ففي لحظة الإيحاء الأولى في طور سيناء جرت عملية تدريب لموسى عليه السلام على المعجزة التي سيقدمها إلى فرعون وقومه:ـ

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ﴾ (١) .

فكانت هنا معجزتان:

الأولى: انقلاب العصا حية حقيقية تسعى..

الثانية: تلألؤ يد موسى السوداء كأنها مصباح منير أو كأنها فلقة القمر ..

وعادت الأمور إلى طبائعها بعد إجراء هذه التجربة العملية، وتحمل موسى عليه السلام أمانة البلاغ عن الله عز وجل إلى فرعون وقومه، وذهب إليه، وعرض عليه الرسالة وبين له أصول الدين ودلائل القدرة الإلهية ومعالم الوحي المنزل.

قال تعالى: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾ (٢) .

لكن فرعون لم يفهم حقيقة الموقف وظن أن الأمر منازعة للسلطة ومحاولة لقلب نظام الدولة، وتوهم أن معجزة موسى لون من السحر فبدأ يجمع كل سحّار عليم على أرض مصر وجمعهم ليوم الزينة وهو يوم عيد وفاء النيل، ووعدهم الأجر والزلفى إلى مجلسه..

---

(١) طه: ١٧ ـ ٢٣ . (٢) طه : ٤٧ ـ ٥٤ .

والتقى الجمعان وألقى سحرة فرعون حبالهم وعصيهم، وقالوا: بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون، فنصحهم موسى عليه السلام قائلاً: ﴿وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ (١).

فلما ألقوا حبالهم وسحروا أعين الناس: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٢).

وتقدم موسى عليه السلام مؤيداً من الله عز وجل، وألقى عصاه فتحولت بقدرة الله إلى حية كبيرة تلتهم حبال سحرة فرعون وعصيهم، وعندئذ أدرك السحرة الفرق بين فعل الخالق وفعل الخلق: ـ ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ (٣).

وظل فرعون على غيه وضلاله وتوعد السحرة الذين كان قد وعدهم من قبل وبدأ يهذي ويثور: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ (٤).

وأصر السحرة على الجهر بالإيمان، والتوبة مما سلف من أعمال، واستهزأوا بوعيد فرعون، وآثروا الجنة ونعيمها. ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (٥).

وأرسل الله على قوم فرعون معجزات تؤرقهم وعذاباً يقض مضاجعهم ويمهلهم إلى ميقات آخر قبل أن يستأصلهم بالبطشة الكبرى..

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ (٦).

فهذه سبع آيات أيد الله بها موسى وأظهرها لقومه وجعلها نذراً لهم عسى أن يستعيدوا الوعي ويثوبوا إلى الرشد ويهرعوا إلى الإيمان:

---

(١) طه: ٦١. (٢) يونس: ٨١ ـ ٨٢.
(٣) طه: ٧٠. (٤) طه: ٧١.
(٥) طه: ٧٢ ـ ٧٣. (٦) الأعراف: ١٣٠ ـ ١٣٥.

١ ـ السنون، وهي شدة الجدب والقحط.

٢ ـ نقص الثمرات.

٣ ـ الطوفان، إما بزيادة منسوب المياه في نهر النيل، أو بتتابع المطر حتى أهلك الحرث والنسل.

٤ ـ الجراد، ومن شأنه إذا اجتاح أرضًا أن يأكل الزرع والثمار.

٥ ـ القمل، وهي حشرات تسلب النوم من الأعين، وتدع الناس بلا راحة في نوم ولا قدرة على عمل..

٦ ـ الضفادع، وإذا كثرت في مكان أصمت الآذان، ولوثت الطعام، وتسجت بالفراش والملابس.

٧ ـ الدم، الذي تحول الماء إليه عند شرابه، أو الذي يسيل من أنوفهم بلا انقطاع.

فهذه سبع آيات، إذا أضفنا إليها العصا واليد كانت تسعًا، وهي المرادة بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ (١).

وقد عدها الشيخ عبد الوهاب النجار هكذا:

١ـ السنون. ٢ ـ نقص الأموال. ٣ ـ نقص الأنفس.

٤ـ نقص الثمرات. ٥ـ الطوفان. ٦ ـ الجراد

٧ ـ القمل. ٨ ـ الضفادع. ٩ ـ الدم (٢).

ونحن نرى أن نقص الأموال والأنفس داخل في السنين ونقص الثمرات، فالجدب إذا حل بقوم نقص مالهم وضرعهم وثمرهم ومات بعضهم.

كما نرى أن هذه الآيات السبع كانت استجابة إلهية لدعوة موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (٣).

فمعجزات موسى عليه السلام التي واجه بها فرعون وقومه على نوعين:

الأول: معجزات قدمت ابتداء دلائل على صدق دعوى النبوة، وهي العصا واليد.

الثاني: معجزات وقعت عقابًا مؤقتًا لعلهم يرجعون، وهي السبع الباقيات، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٤).

---

(١) الإسراء: ١٠١. (٢) قصص الأنبياء: ١٩٨.

(٣) يونس: ٨٨. (٤) الزخرف: ٤٨.

فلما كذب القوم بالآيات كلها أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وأغرق الله فرعون ومن معه جميعًا، وجعلهم سلفًا ومثلاً للآخرين.

وهناك آيات أخرى تجلت لبني إسرائيل أثناء عبورهم وعقب نجاتهم واستقرارهم في سيناء، منها:

١ ـ انفلاق البحر، وحبس الماء على الجانبين، وتسوية طريق بينهما لعبور بني إسرائيل ثم إطباق الماء على فرعون وجنوده..

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (١).

٢ ـ المن والسلوى، وهو طعام امتنّ الله به على بني إسرائيل في التيه من غير عمل ولا كد، فكان ينزل عليهم المنّ أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، ويصل إليهم طائر السلوى يشبه السماني أو الحمام.

٣ ـ الغمام، الذي أظل بني إسرائيل يقيهم الحر والبرد.

قال الله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٢).

٤ ـ تفجير الماء من الحجر عيونًا بعدد أسباط بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٣).

وللعلماء رأيان في «الحجر» هل «أل» للجنس أو للعهد؟ بمعنى: هل المقصود هو ضرب أي حجر فيخرج منه الماء أو ضرب حجر بعينه؟

– ذهب بعض المفسرين إلى أن الحجر كان معينًا من طور سيناء يحمله بنو إسرائيل، أو حجرًا نزل من الجنة.

– وذهب آخرون إلى أن المراد مطلق حجر فحيثما كانوا ضرب موسى بعصاه أي حجر، فيخرج منه الماء، ثم يضربه فييبس، وهذا هو الراجح والأظهر في المعجزة والأيسر في التعامل.

٥ ـ قصة البقرة وذلك حين اختلف بنو إسرائيل في قتيل لم يعلم قاتله، فأوحى الله إليهم على لسان موسى عليه السلام أن اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها فأحياه الله وأخبر بقاتله..

---

(١) الشعراء: ٦١ ـ ٦٣. (٢) البقرة: ٥٧. (٣) البقرة: ٦٠.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١).

وقد حاول الشيخ عبد الوهاب النجار تفسير الآية تفسيرًا عجبًا وادعى أن المراد هو ضرب المتهمين بالقتل بعضو من أعضاء القتيل كيده ورجله، فإذا كان المتهم بريئًا لم يحدث له شيء، وإذا كان قاتلاً ظهر عليه انفعال نفسي ورعدة يُعلم بسببها أنه هو القاتل دون سواه أو هو على اتصال به، وهذا الانفعال قد يكون فرحًا وجذلاً، وقد يكون خوفًا ورعدة تبعًا لسبب القتل.

وقد علقت اللجنة التي شكلت لفحص كتاب الشيخ النجار على هذا التأويل بأنه مخالف لما ثبت بالرواية والأثر، وخطأ من جهة الدراية والنظر، فلم يسبق ذكر للمتهم حتى يرجع الضمير إليه في قوله «اضربوه» ثم إنه يفصل قصة القتيل عن قصة ذبح البقرة، وتكون قصة البقرة بلا هدف مقنع..

ثم ما وجه الدلالة بقصة ضرب القاتل على إحياء الله الموتى؟

وأي آية يظهرها الله في هذا المقام ليعقلها الناس إذا لم تكن مرتبطة بإحياء القتيل بعد ضربه ببعض البقرة؟!(٢).

٦ - نتق الجبل بمعنى رفعه فوق رءوس بني إسرائيل حين تمردوا على شريعة موسى عليه السلام، وصار كأنه ظلة وأوشك أن يدق أعناقهم ويسوي بهم الأرض فسارعوا إلى التوبة وأعلنوا ولاءهم للدين فكشف الله ما نزل بهم وعفا عنهم..

قال تعالى: ﴿وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٣).

والجبل هو جبل طور سيناء كما فسرته آية سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ (٤).

ومعنى «خذوا ما آتيناكم بقوة» حافظوا على الدين محافظة تامة وتمسكوا بالشريعة تمسكًا قويًا، وأوفوا بعهد الله وفاء كاملاً..

ولا يعترض على ذلك بأن فيه إكراهًا على الإيمان وإلجاء إليه يتنافى مع التكليف وحرية الإرادة، فإن رفع الجبل فوقهم كان شروعًا في عقابهم على تمردهم ونقضهم العهد

---

(١) البقرة: ٧٢ - ٧٣.

(٢) قصص الأنبياء: ص ٢٣٥ - ٢٨١.

(٣) الأعراف: ١٧١. (٤) البقرة: ٦٣.

وخياناتهم للدعوة، فلما وجدوا أنفسهم لا محالة هلكى، سارعوا بالتوبة والندم، وآثروا العمل والاستقامة، فقبل الله توبتهم وليس في ذلك إكراه أو إلجاء، فكم من المجرمين يتوبون ويعود إليهم رشدهم قبيل تنفيذ العقوبة عليهم أو بعدها وتحسن توبتهم . .

* * *

هذه الأمور الخارقة للعادة التي وقعت لبني إسرائيل ـ هي من المعجزات التي أيد الله بها موسى عليه السلام في رسالته ونبوته، فالقوم يحتاجون إلى ما يثبت إيمانهم، ويقوي يقينهم، ويجدد فيهم الولاء للرسالة والرسول.

ومع ذلك فإن بني إسرائيل غلبت عليهم الشقوة، وآثروا الضلالة، وكفروا بأنعم الله فأذاقهم الله الخزي في الدنيا وكتب عليهم العذاب في الآخرة . .

قال تعالى: ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١) .



(١) البقرة: ٢١١ .

معجزات داود عليه السلام

منح الله داود عليه السلام آيات ومعجزات دالة على نبوته، تتناسب مع كونه نبيًا ملكًا ورسولاً قائدًا . . ومن ذلك:

١ ـ تسخير الجبال والطير لترديد أذكاره ودعائه، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (١) .

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٢) .

لقد اشتهر داود بترتيل الزبور، وهو كتاب مشتمل على حكم ومواعظ، ومنح الله داود صوتًا رائعًا يستوقف الطير السابحات في الفضاء، لتردد معه تسبيحاته، وسخر الله له الجبال الشامخات ترجِّع معه وتسبح تبعًا له وبخاصة في أول النهار وآخره . .

وقد صح في الحديث أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لأبي موسى الأشعري: «لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود» .

وفي رواية: أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال له: «لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة؟!» فقال له أبو موسى: لو علمتُ أنك تستمع لحبَّرته لك تحبيرًا . . أي لحسنته لك تحسينًا.

٢ ـ إلانة الحديد . . قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٣) .

فكان الحديد في يده كالشمع يصرفه كيف يشاء من غير آلات وأفران نارية تصهره، بل بمجرد وضع اليد عليه يصير منصهرًا، وهذا هو الأمر الخارق للعادة الذي يعد معجزة، كما كان عيسى عليه السلام يبرئ الأكمه والأبرص بمجرد المسح عليه والدعاء له من غير عقاقير، وأدوية ومشارط طبية.

وعلم الله تعالى داود عليه السلام صناعة الدروع من هذا الحديد المنصهر .

---

(١) الأنبياء: ٧٩ .

(٢) ص: ١٨ ـ ١٩ .

(٣) سبأ: ١١ ـ ١٢ .

تلك الدروع التي تقي المحارب الإصابة من سلاح عدوه..

فالسابغات هي الدروع السابغة التي تستر بدن المقاتل، والتقدير في السرد هو إحكام الصنعة ودقتها فالسرد هو النسج، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (١) .

وقد قام داود عليه السلام بعمل هذه الدروع كآلة حربية، وكصنعة يباشرها، يعول بها نفسه وولده، ولهذا قدمه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ نموذجًا يقتدى به في مجتمع المؤمنين فقال ـ كما في صحيح البخاري ـ: «**ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده**» .



(١) الأنبياء: ٨٠ .

معجزات سليمان عليه السلام

ورث سليمان النبوة والحكمة عن أبيه داود عليه السلام، وجعله الله نبيًا، وأعطاه ملكًا لم يسبق لأحد، ولم يلحقه فيه أحد..

وكانت آيات نبوته ومعجزات اصطفائه ذات صبغة متفردة، تتناسب مع عطاء النبوة والملك، وحقق الله دعوته حين قال: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[1].

واعترف سليمان بفضل الله عليه وحمد الله حمدًا كثيرًا كما حمده أبوه من قبل: ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وظل سليمان شاكرًا لأنعم الله، راجيًا رحمته، طالبًا غفرانه: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[3].

ومن هذه الآيات البينات:

١ ـ تعليم منطق الطير، فكان يعرف أصوات الطيور والحيوانات ودلالاتها، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر، ولا يقع إلا معجزة لنبي يؤيده الله بها في صدق دعوى النبوة.

وساق القرآن نموذجًا لذلك تمثل في مخاطبة النملة لفصيلتها ومحاورة الهدهد مع سليمان..

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾[4].

وقال جل شأنه: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝٢١ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[5].

ومعنى قوله: «لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين»: هل هو موجود أمامي وأخطأه نظري، أو هو غائب عن المجلس ليس حاضرًا؟!

---

(١) ص: ٣٥.
(٢) النمل: ١٥.
(٣) النمل: ١٩.
(٤) النمل: ١٨، ١٩.
(٥) النمل: ٢٠ ـ ٢٢.

وقد ساق ابن كثير[1] هذه الرواية عن ابن عباس وغيره قال:

كان الهدهد مهندسًا يدل سليمان عليه السلام على الماء، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض، فنزل سليمان عليه السلام يومًا بفلاة من الأرض فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره، فقال: ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين؟

وحدث يومًا عبد الله بن عباس بنحو هذا، وفي القوم رجل من الخوارج يقال له نافع ابن الأزرق، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس، فقال له:

قف يا ابن عباس ، غلبت اليوم.

قال: ولم؟

قال: أتخبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تخوم الأرض، وإن الصبي ليضع له الحبة في الفخ ويحثو على الفخ ترابًا فيجيء الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ فيصيده الصبي؟!

فقال ابن عباس: لولا أن يذهب هذا فيقول: رددت على ابن عباس لما أجبته.

ثم قال له: ويحك، إنه إذا نزل القَدَر عمي البصر، وذهب الحذَر.

فقال له نافع: والله لا أجادلك في شيء من القرآن أبدًا.

٢ ـ تسخير الرياح بحيث يصرفها سليمان عليه السلام، كما يصرف الناس دابتهم، وكانت هذه الرياح تحمله إلي مسافات بعيدة في انقياد كامل.

قال الله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ [2] .

وقال جل شأنه: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً [3] حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [4] .

٣ ـ إسالة عين نحاسية يستخدمها عمال سليمان عليه السلام في أعمال البناء والتشييد والصناعات. قال تعالى: ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ [5] .

٤ ـ تسخير الجن، يتحكم فيهم سليمان، وينفذون أوامره ويشيدون له المباني الضخمة والعجيبة والجميلة ويصنعون له أدوات المائدة وأجهزة الطهي ووسائل الراحة، ويشاركون في النهضة العمرانية للمجتمع .

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ [6] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (ج٣ ص ٣٥٩) .
(٢) سبأ: ١٢ .
(٣) الرخاء: الريح اللينة.
(٤) ص : ٣٦ .
(٥) سبأ: ١٢ .
(٦) سبأ: ١٢، ١٣ .

وقال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ (١).

فكان الشياطين على نوعين:

- نوع مسخر في البناء والتشييد والعمارة للمحاريب وهي المساجد والقصور، وللتماثيل النحاسية والحديدية وغيرها، وللأحواض الكبيرة التي يختزن فيها الماء، وللأواني الواسعة الثابتة في أماكنها من أجل الطهي لجنود سليمان وجيشه الجرار..

- ونوع مسخر للغوص في البحار، يستخرج اللآلئ والجواهر والنفائس..

فمن تمرد على الأمر وخرج على الطاعة عوقب بالحبس والقيد والإذلال.

٥ - إحضار عرش ملكة سبأ من اليمن إلى فلسطين في طرفة عين.. ولما علم سليمان بعزم ملكة سبأ على القدوم إليه في مقر إقامته وعاصمة دولته في فلسطين جمع حاشيته وعرض عليهم أمر إحضار العرش ليكون دليلاً قاهرًا على أنه نبي ملك يبلغ دعوة ربه وليس له مطامع شخصية..

قال تعالى: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۝٣٨ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۝٣٩ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (٢).

وتعددت كلمة المفسرين فيمن أحضر عرش ملكة سبأ، هل هو من الملائكة؟ أو من الإنس، بعدما رفض عرض عفريت الجن؟!

فقيل: إنه جبريل عليه السلام، وقيل: إنه آصف وزير سليمان كان يعلم اسم الله الأعظم.

ورجح الإمام الرازي أنه سليمان نفسه، والمخاطب هو عفريت الجن، صاحب العرض الأول، وذلك لوجوه هي:

١ - أن لفظة «الذي» موضوعة في اللغة للإشارة إلى شخص معين عند محاولة تعريفه بقصة معلومة.

والشخص المعروف بأنه عنده علم الكتاب هو سليمان عليه السلام، فوجب انصرافه إليه.

---

(١) ص: ٣٧ - ٣٨.

(٢) النمل: ٣٨ - ٤٠.

أقصى ما في البـاب أن يقال: كان آصف كذلك أيضًا، لكنا نقول: إن سليـمان عليه السـلام كان أعـرف بالكتاب منه لأنه هو النبي فـكان صرف هذا اللفظ إلي سليـمان علـيه السلام أولى.

٢ ـ إن إحضار العرش في تلك السـاعة اللطيـفة درجة عالية فلو حصلت لآصف دون سليمان لاقتضى ذلك تفضيـل آصف على سليمان عليه السلام، وإنه غير جائز.

٣ ـ إن سليمان عـليه السـلام لو افتقـر في ذلك إلى آصف لاقتضى ذلك قـصور حال سليمان في أعين الخلق.

٤ ـ إن سليـمان قال: «هذا من فضل ربي ليـبلوني أأشكر أم أكفر» وظاهره يقتضي أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله تعالى بدعاء سليمان [1].

* * *

(١) التفسير الكبير (ج٢٤ ص ١٩٨) ط. دار الفكر.

معجزات عيسى عليه السلام

بعث الله تعالى عيسى ابن مريم رسولاً إلى بني إسرائيل، يدعوهم إلى التوحيد الخالص، وعبادة الله وحده، وأيده بمعجزات خمس، جاءت في قوله تعالى: ﴿وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (١) .

فقد جمع هذا النص الشريف خمس معجزات هي:

١ ـ ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

وقد قرأ نافع «طائرًا»، والباقون «طيرًا» وهو اسم جنس يقع على الواحد والجمع.

وساق الإمام الرازي توجيهًا للقراءتين فقال: «يروى أن عيسى عليه السلام لما ادعى النبوة وأظهر المعجزات أخذوا يتعنتون عليه وطالبوه بخلق خفاش فأخذ طينًا وصوره ثم نفخ فيه، فإذا هو يطير بين السماء والأرض.

قال وهب: كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتًا.

ثم اختلف الناس فقال قوم: إنه لم يخلق غير الخفاش، وكانت قراءة نافع عليه، وقال آخرون: إنه خلق أنواعًا من الطير، وكانت قراءة الباقين عليه(٢) .

٢، ٣ ـ ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾ :

الأكمه: هو من ولد أعمى، أو عمي بعد أن كان بصيرًا، والأبرص: هو المصاب بمرض جلدي يقع الجلد، ويذهب دمويته، ويصيره شديد البياض.

وهذان المرضان مما يحار في علاجهما الأطباء، وكان عيسى عليه السلام لا يستعمل عقارًا ،ولا يحمل مشرطًا، ولا يصف دواء، وإنما كان يدعو الله سبحانه فيستجيب له، وتلك هي المعجزة.

---

(١) آل عمران: ٤٩ ـ ٥٠ .

(٢) التفسير الكبير (ج١١ ص ٦٢) .

٤ ـ ﴿وأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ .

من البدهي أن الطب مهما علا قدمه، واتسعت آفاقه فلن يمنع الموت، فتلك سنة لن تتخلف، ولن يتقدم الإنسان أجله أو يتأخر.

ومنح الله المسيح معجزة خارقة للعادة، وهي إحياء الموتى فيناديهم من قبورهم فيخرجون إلى أهليهم ثم يقضى عليهم متى أراد الله فيموتون.

٥ ـ ﴿وأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ :

فمن جملة معجزات المسيح إخباره بما غاب عنه وأخفاه الناس مما يأكلون أو يدخرون في بيوتهم، ولم يكن ذلك كهانة أو تنجيمًا أو فراسة فهي مظنة الخطأ، وصدق مرة في هذه الحالات يتبعه الخطأ مرات ومرات.

أما المسيح فيتكلم بوحي الله إليه.

وهذه المعجزات كلها بإذن الله، ليس للمسيح فيها قوة، أو اجتهاد، أو اتخاذ أسباب، بل هي إرادة الله وفعله، شأنه في ذلك شأن كل الرسل والأنبياء الذين اصطفاهم الله وأيدهم.

* * *

تساؤلات

• هل يلزم أن يكون لكل نبي معجزة؟

نحن نؤمن أن لكل نبي معجزة يظهرها الله تعالى على يديه برهانًا قاطعًا على تصديق الله له وصدقه في دعوى النبوة.

ولا يعقل بحال من الأحوال أن يتقدم إنسان إلى قومه مدعيًا النبوة ثم يجد اجتماع الناس حوله بمجرد الدعوى، فإن ذلك يفتح الباب على مصراعيه أمام كل أفاك أثيم، ويسوي بين الأنبياء والمتنبئين.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ (١).

أي بالمعجزات، والحجج الباهرات، والدلائل القاطعات..

وما يقال من أن الصدق والأخلاق الحميدة هي فيصل التفرقة، هو كلام مرسل لا يغني من الحق شيئًا، فكل المصلحين وكثير من الفلاسفة والعلماء لديهم الخلق، ولم يمنحهم الله النبوة..

ولا يلزم من إيماننا بالمعجزة لكل نبي أن نعرف هذه المعجزة، أو أن نجد نصًا شرعيًا يحدد شكلها ونوعها مع الأنبياء جميعًا.

فنحن نؤمن بما قصه القرآن العظيم من معجزات، ونكِل علم باقيها إلى الله تعالى..

وذلك على غرار إيماننا بالأنبياء، فنحن نؤمن بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (٢).

لكننا لسنا نملك إحصائية دقيقة لعدد الأنبياء والمرسلين، الذين بعثهم الله إلى خلقه، ونكتفي بما ورد ذكرهم في القرآن.

قال تعالى: ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ (٣).

• هل يعد طوفان نوح عليه السلام من المعجزات؟

مما لا شك فيه أن الطوفان آية من آيات الله التي يلاحق بها الظالمين والمتكبرين، وهي علامة على قدرة الله القوي القاهر الذي ينصر عباده وجنده، ويخذل أولياء الشيطان وحزبه..

---

(١) الحديد: ٢٥. (٢) فاطر: ٢٤.
(٣) النساء: ١٦٤.

لكن المعجزة في مفهومها الاصطلاحي يراد بها الدليل المقدم إلي القوم ليدركوا به صدق نبيهم ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة﴾ .

وطوفان نوح عليه السلام لم يكن من المعجزات التي تقدم لقوم نوح عنوانًا على صدق رسولهم، وإنما كان الطوفان عذاب استئصال حل بالقوم بعد طول عناد واستكبار وإصرار على الكفر، وبعدما وضحت الآيات وظهرت المعجزات..

لقد جاء طوفان نوح بعد ألف إلا خمسين عامًا من الدعوة، وقد أكد القرآن هذا المعنى في أكثر من سورة..

ففي سورة هود قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ (١) .

وفي سورة المؤمنون، قال جل شأنه: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ (٢) .

وفي سورة الشعراء، قال سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (٣) .

فالطوفان لم يكن معجزة للذين جرفهم وإنما كان عذاب استئصال حل بهم لما كذبوا نوحًا ولم يتأملوا دلائل نبوته ورسالته..

لكن الطوفان قد يكون معجزة لمن آمن بنوح وركب معه السفينة فقد عاين هؤلاء صدق رسولهم وتحقيق الوعيد الذي أنذر المكذبين به..

ومن هنا وصف الطوفان بأنه آية، فهو دلالة قوية وحجة قاطعة لدى المؤمنين على أن الله منجز وعده، ومحقق وعيده، وناصر رسوله، ومستجيب لدعائه، كما قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ (٤) .

* * *

(١) هود: ٣٦ ـ ٣٧ .
(٢) المؤمنون: ٢٦ ـ ٢٧ .
(٣) الشعراء: ١١٧ ـ ١٢١ .
(٤) القمر: ١٠ ـ ١٤ .

المبحث الثاني:

ألوان من خوارق العادات

- الإرهاص .
- الكرامة .
- المعونة .
- الإهانة.
- الاستدراج .

الإرهاص

الإرهاص [(١)] : خارق للعادة، يظهره الله قبل بعثة نبي، تأسيسًا للنبوة، وتمهيدًا لها. . ومن أمثلته ما يلي:

الأول: حماية الكعبة من هجمة الأحباش عام ميلاد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد سجل القرآن المجيد هذا الحدث التاريخي في سورة تحمل اسم الفيل.

فقال: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥)** ﴾ [(٢)] .

وقد يتساءل البعض: أي الفريقين كان أهدى سبيلاً، أبرهة بنصرانيته، أم قريش بوثنيتها؟!

ويجيب الإمام ابن كثير في تفسيره:

«وكان دينهم ـ أي أصحاب الفيل ـ إذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان، ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فإنه في ذلك العام ولد ـ على أشهر الأقوال ـ ولسان حال القدر يقول:

لم ننصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء».

الثاني: شق الصدر الشريف، وقد جاءت روايات متعددة حول هذا المعنى. . ففي صحيح البخاري بسنده عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه أن نبي الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حدثه عن ليلة أسري به قال: «**بينما أنا في الحطيم** ـ وربما قال: في الحجر ـ **مضطجعًا إذ أتاني آت فقدَّ** ـ **أو فشق** ـ **ما بين هذه إلى هذه** ، فقلت للجارود وهو إلى جنبي ـ ما يعني به؟ قال: من ثُغرة نحره إلى شِعْرته ـ أو من قصِّه إلى شعْرته ـ **فاستخرج قلبي، ثم أُتيتُ بطَسْت من ذهب، مملوءة إيمانًا، فغُسِل قلبي، ثم حُشِي ثم أعيد**» .

وفي صحيح مسلم بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه ، واستخرج القلب ، فاستخرج منه علَقَة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طِسْت من ذهب

(١) أرهص الشيء في اللغة: أثبته وأسسه.

(٢) سورة الفيل.

بماء زمزم، ثم لأمه ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني - ظئره أي مرضعته - فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون، قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره».

وجاءت روايات عند أبي نعيم في الدلائل تفيد أن شق الصدر الشريف حدث أيضًا قبيل البعثة.

- ويرى العلماء أن لكل حادثة من هذه الحوادث الثلاث حكمة:

فما كان في زمن الطفولة لينشأ على أكمل الأحوال من العصمة..

وما كان عند البعثة ليتلقى الوحي بقلب قوي في أكمل حالات الطهر..

وما كان عند الإسراء والمعراج ليتأهب للمناجاة العلوية القدسية..

وقد حاول البعض إنكار هذه الروايات قديمًا وحديثًا، فالمعتزلة قديمًا قالوا: إن تأثير الغسل في إزالة الأجسام، والمعاصي ليست بأجسام فلا يكون للغسل أثر فيها، كما أنه لا يصح عندهم أن يملأ القلب علمًا بل إن الله تعالى يخلق العلوم في القلب..

وقد نقل ذلك عنهم الإمام الرازي في تفسيره لسورة الشرح.

وطعن المستشرقون حديثًا في هذه الروايات، ورأوها ضعيفة الإسناد..

ودافع عنهم الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه «حياة محمد» وقال:

«وإنما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين إلى هذا الموقف من ذلك الحادث أن حياة محمد كانت كلها إنسانية سامية وأنه لم يلجأ في إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق.. وهم في هذا يجدون من المؤرخين العرب والمسلمين سندًا حين ينكرون من حياة النبي العربي كل ما لا يدخل في معروف العقل، ويرون ما ورد من ذلك غير متفق مع ما دعا القرآن إليه من النظر في خلق الله، وأن سنة الله لن تجد لها تبديلاً».

وأقول: إن الطعن بهذه العموميات لا يفيد شيئًا، فإن قدرة الله صالحة، وإن خوارق العادات مرتبطة بالأنبياء قبل البعثة وبعدها بما يسمى الإرهاص والمعجزات والكرامات..

وإن الاستبعاد ليس دليلاً على عدم الوقوع، فكم من أشياء استبعدناها بالأمس ووقعت اليوم.

فالمدار في القبول على صحة النقل.. واستقر لدى علماء المسلمين أن كل ما صح نقلاً وجاز عقلاً وجب قبوله.

الثالث: تسليم الحجر، فقد ثبت في صحيح مسلم أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن**».

ويروي ابن إسحق، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين أراده الله بكرامته، وابتدأه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته [١] أبعد حتى تحسر [٢] عنه البيوت، ويفضي إلى شعاب مكة، وبطون أوديتها.

فلا يمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحَجَر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، فيلتفت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حوله وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة.

فمكث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء في شهر رمضان [٣] ».

ويمكن فهم تسليم الحجر والشجر كما نفهم سائر خوارق العادات فهي فعل الله تعالى الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فهي غير مألوفة للبشر . .

أو أن هذه التسليم مجاز عن أصوات ملائكة تناجي الرسول دون أن يراهم، فيظن الأصوات صادرة عما حوله من حجر أو شجر . .

وعلى كل، فالمقصود هو التهيئة النفسية والروحية لتحمل الرسالة وتلقي الوحي عن طريق الإرهاص الشخصي.

الرابع: قبيل تلقي الوحي بستة أشهر مكث ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يرى رؤيا إلا تحققت كما رآها.

ففي صحيح البخاري عن عائشة ـ أم المؤمنين ـ أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح».

* * *

(١) قضاء الحاجة. (٢) تبعد عنه.

(٣) الروض الأنف (ج١ ص ٢٦٦) .

الكرامة

تعرف الكرامة في اصطلاح علماء العقيدة بأنها أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد عبد ظاهر الصلاح غير مدع للنبوة، إكرامًا له لولائه لنبي زمانه..

والكرامة لا يدعيها أحد، ولا يتحدى بها، وهي تجري بإرادة الله عز وجل، ومن غير انتظار..

والمسلم يؤمن بالكرامة للعبد الصالح على جهة العموم دون ارتباط بشخص معين، اللهم إلا ما ورد في حقه نص شرعي، أما كرامة فلان من الناس فلا تدخل في باب العقيدة، ولا يرتبط بها إيمان، وهي متروكة لمن شاهدها أو نقلت إليه بطريق يوجب العلم..

والدليل على وجوب الإيمان بالكرامة قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (١).

وقوله سبحانه: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٢).

فولاية الله للصالحين تعني كفالتهم ونصرتهم وتأييدهم وإظهار فضلهم.

وبشرى الله لأوليائه في الدنيا هي الرؤيا الصالحة لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حديث صحيح: «**لم يبق من النبوة إلا المبشرات**» قالوا: وما المبشرات؟ قال: «**الرؤيا الصالحة**».

وهي حسن الثناء من الناس لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**» عندما سئل عن الرجل يعمل العمل، ويحمده الناس عليه.

وهي تنزل الملائكة لتأييد العبد الصالح وتسديد خاطره، وإلهامه الخير، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ (٣).

أما بشرى الله لأوليائه في الآخرة فهي الفردوس الأعلى كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٤).

وجاء في الحديث القدسي الذي رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

---

(١) الأعراف: ١٩٦.
(٢) يونس: ٦٢ ـ ٦٤.
(٣) فصلت: ٣٠ ـ ٣١.
(٤) الحديد: ١٢.

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «إن الله تعالى قال: مَن عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه» .

فالطريق إلى ولاية الله هو التزام الفرائض والإكثار من النوافل حتى تصير الأعضاء والجوارح كلها في طاعة كاملة لله عز وجل، وحينئذ يكون هذا العبد في كفالة الله وعنايته، وفي محل الرضا من الله سبحانه وتعالى، وفي مقام الحفظ والرعاية فلا يدعو إلا وهو مستجاب الدعوة، ولا يستعيذ إلا وتحفه الملائكة تحفظه بأمر الله . .

وكل من أغضب أولياء الله بالقول أو الفعل واستهزأ بهم، ونال من أعراضهم، فهو هالك لا محالة، خاسر خسرانًا مبينًا . .

ومن أمثلة الكرامات التي وردت بها نصوص شرعية:

١ ـ رزق مريم في محرابها:

قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (١) .

فالمحراب غرفة ملحقة بالمسجد، كانت تقيم فيها مريم عليها السلام، ويشرف عليها زكريا عليه السلام، وهو زوج أختها أو خالتها. وهو الذي يتولى شئونها كلها، ولا يدخل عليها أحد غيره وبدأ زكريا يجد أمرًا عجبًا وهو وجود رزق لم يقدمه لها، فسألها عن سر وجوده عندها، فأشارت إليه بإسناد الأمر كله إلى الله وحده، فهو الخالق الرازق المدبِّر الحكيم . .

وقد فسر العلماء هذا الرزق بأنه فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء.

ولما رأى زكريا هذا الأمر الخارق للعادة رغب أن يرزقه الله على خلاف العادة ولدًا من زوجه العاقر، مع كبر سنه ووهن عظمه. . قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٢) .

٢ ـ حمل مريم بعيسى:

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ (٣) .

---

(١) آل عمران: ٣٧ . (٢) آل عمران: ٣٨ . (٣) مريم: ١٦ ـ ١٩ .

وفي حمل مريم مجموعة كرامات منها:

١ ـ رؤية الـمَلَك ومناجاته.

٢ ـ الحمل دون لقاء مع رجل.

٣ ـ تهيئة مجرى مائي على غير العادة، وتساقط الرطب في غير موعده.

٤ ـ قدرة الفتاة النفساء على هز جذع النخلة التي لا يقدر على هزها العصبة من الرجال.

٣ ـ الأسير الشيطاني:

أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: وكَّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج وعليَّ عيال، ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه، فأصبحت، فقال النبي ﷺ: «**يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟**» قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته فخليت سبيله. قال: «**أما إنه قد كذبك وسيعود**» قال أبو هريرة: فعرفت أنه سيعود، لقول رسول الله ﷺ إنه سيعود، فرصدته، فجاء يحثو من الطعام فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعني فإني محتاج وعليَّ عيال، لا أعود، قال أبو هريرة: فرحمته فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «**يا أبا هريرة ما فعل أسيرك؟**» قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته، فخليت سبيله. فقال: «**أما إنه قد كذبك وسيعود**» قال أبو هريرة: فعرفت أنه سيعود، لقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنه سيعود، فرصدته، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وهذا آخر ثلاث مرات، إنك تزعم لا تعود ثم تعود، قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هن؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح.. فخليت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**ما فعل أسيرك البارحة؟**» قلت: زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخليت سبيله. قال: «**ما هي؟**» قلت: قال لي: إذا أويت إلي فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم، وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح... ـ وكان الصحابة أحرص شيء على الخير ـ فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال؟**» قلت: لا، قال: «**ذاك شيطان**».

٤ ـ رؤية الملائكة:

أخرج البخاري ومسلم ـ واللفظ له ـ عن أبي سعيد الخدري أن أسيد بن حضير رضي الله عنهما بينما هو في ليلة يقرأ في مِرْبده [١]، إذ جالت فرسه، فقرأ، ثم جالت أخرى، فقرأ، ثم جالت أخرى أيضًا. قال أسيد: فخشيت أن تطأ يحيى (ابن له) فقمت إليها، فإذا مثل الظلة فوق رأسي فيها أمثال السرج، عرجَتْ في الجو حتى ما أراها. فغدوت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فقلت: يا رسول الله، بينما أنا البارحة في جوف الليل أقرأ في مربدي إذ جالت الفرس. فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**اقرأ ابن حضير**» قال: فقرأت، ثم جالت أيضًا ثم قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**اقرأ ابن حضير**» قال: فانصرفت، وكان يحيى قريبًا منها فخشيت أن تطأه، فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج، عرجت في الجو حتى ما أراها. فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**تلك الملائكة كانت تستمع لك، ولو قرأت لأصبحتْ يراها الناس ما تستتر منهم**».

٥ ـ سلامة أجساد الموتى:

أخرج البخاري في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال: لما حضر أحدٌ دعاني أبي من الليل، فقال: ما أُراني [٢] إلا مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وإني لا أترك بعدي أعز عليٍّ منك غير نفس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وإن عليَّ دَيْنًا فاقض، واستوص بأخواتك خيرًا. قال جابر: فأصبحنا، فكان أول قتيل، ودفن معه آخر في قبر، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع الآخر فاستخرجته بعد ستة أشهر، فإذا هو كيوم وضعته غير هنية [٣] في أذنه».

وهناك رواية في الموطأ أعجب من هذا، فقد بلغ مالكًا أن عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمرو الأنصاريين رضي الله عنهما كانا قد حفر السيل قبرهما وكان قبرهما مما يلي السيل، وهما ممن استشهد يوم أحد، فحفر عنهما ليغيرا من مكانهما، فوجدا لم يتغيرا كأنهما ماتا بالأمس، وكان أحدهما قد جرح فوضع يده على جرحه فدفن وهو كذلك، فأميطت يده عن جرحه ثم أرسلت فرجعت كما كانت، وكان بين أحد وبين يوم حفر عنهما ست وأربعون سنة.

(١) المربد: موقف الإبل ومحبسها.

(٢) اراني: بضم الهمزة: اظن.

(٣) هنية: اي تغير يسير.

المعونة

المعونة في اصطلاح المتكلمين: أمر خارق للعادة، يظهره الله تعالى على يد عبد مستور الحال، لا يعرف عنه كبيرة، ولا إصرار على صغيرة، وليس من المشهورين بالعلم أو العبادة،

ويقع هذا الأمر الخارق تخليصًا للعبد من شدة ألمت به، أو ضائقة حلت عليه.. وذلك كإنسان أوشك على الموت، ويئس منه الأطباء، وفجأة يعافيه الله تعالى ويبرئه..

ومن أعجب ما قرأت ـ هذا الخبر الذي نشرته صحيفة الأهرام، يوم الجمعة (٥/ ١/١٤١٩ هـ - ١/ ٥/ ١٩٩٨ م) .

قالت الصحيفة:

معجزة إلهية، شهدتها أمس عمارة تحت التشطيب بمدينة نصر، فقد سقط عامل فني متخصص في تركيب المصاعد من فوق «سقالة» بالدور الثالث عشر، وهوى في بئر المصعد مسافة أربعين مترًا، ولم يصب بسوء إلا من بضع سحجات بسيطة تتطلب علاجًا لفترة قصيرة..

لم يصدق زملاء «كمال عبد الحي ٣١ سنة» عندما هبوا لنجدته عقب الحادث أنه ما زال على قيد الحياة، كما لم يصدق الشاب نفسه، حين وجد أنه يستطيع أن ينهض من سريره بالمستشفى الذي نقل إليه، وسط دهشة الأطباء المعالجين، فالعامل لم يصب إلا بإصابات سطحية بسيطة على الرغم من سقوطه من ارتفاع كبير من أعلى المبنى.

ويصف الشيخ كمال ـ وهو اللقب الذي أطلقه عليه زملاؤه بعد نجاته من الحادث ـ ما جرى له لمندوب الأهرام قائلاً في دهشة:

أعمل منذ اثنتي عشرة سنة على السقالات في إصلاح المصاعد، وقبل الحادث بيوم واحد كنت فوق السقالة في الدور الأخير من العمارة نفسها التي شهدت الحادث، وكانت ثابتة في مكانها، وفي اليوم التالي كنت أربط سلك المصعد، وفجأة هوت السقالة بي، فشعرت بأني أسقط للهاوية، فحاولت التشبث بأي شيء تطوله يداي، وراح جسمي يصطدم ببعض الأسياخ والسقالات الأخرى داخل البئر، وأيقنت أني هالك لا محالة، إلى أن وجدت نفسي في النهاية على أرض بئر المصعد بالدور الأرضي.

لكن مشيئة الله شاءت لي أن أعيش؛ لأربي بناتي الثلاث، وأتحمل مسئوليتي عن أسرتي..

ويقول الدكتور/ سمير حبو، طبيب المستشفى:

بادرنا بإعداد غرفة العمليات فور وصول الشيخ كمال، لمحاولة إنقاذه، وبعد إجراء الكشف المبدئي عليه وعمل صور الأشعة كانت المفاجأة المذهلة هي أنه لم يصب بأي كسور أو مضاعفات تحتاج إلى عملية جراحية، ولم نجد ما يستدعي بقاءه بالمستشفى، وحين طلب مغادرته لم نجد ما يمنع ذلك.

وقد غادر المستشفى أمس بالفعل عائدًا إلى بيته، وأسرته، وحياته، ولا نجد من الناحية الطبية تفسيرًا لذلك سوى أنها العناية الإلهية التي أنقذت حياة هذا العامل.

* * *

الإهانة

الإهانة في اصطلاح المتكلمين: أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد فاسق مدع للنبوة، على عكس مراده تكذيبًا له..

فقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**إن بين يدي الساعة ثلاثين كذابًا دجالاً، كلهم يزعم أنه نبي**».

وفي أواخر عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تنبأ مسيلمة من بني حنيفة في اليمامة، والعنسي في صنعاء.

وقد بعث مسيلمة رسالة إلى سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاء فيها:

من مسيلمة رسول الله، إلى محمد رسول الله.

سلام عليك، أما بعد:

فإني قد أُشركتُ في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشًا قوم يعتدون.

فكتب إليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله، إلى مسيلمة الكذاب.

السلام على مَن اتَّبع الهدى، أما بعد:

فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين».

وقد رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رؤيا صالحة تتعلق بمصير هذين الكذابين، ففي الصحيح قال: «**بينما أنا نائم أوتيت خزائن الأرض فوُضع في يدي أسوران من ذهب فكبرا عليّ وأهماني، فأوحى إليّ أن انفخهما، فنفختهما فذهبا.. فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما، صاحب صنعاء وصاحب اليمامة**».

ولقى مسيلمة حتفه في حروب الردة، قتله وحشي قاتل حمزة في غزوة أحد.. يقول وحشي:

فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة الكذَّاب صاحب اليمامة خرجت معهم وأخذت حربتي التي قتلت بها حمزة، فلما التقى الناس رأيت مسيلمة الكذَّاب قائمًا في يده السيف، وما أعرفه، فتهيأت له وتهيأ له رجل من الأنصار من الناحية الأخرى، كلانا يريده، فهززت

حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه، فوقعت فيه، وشد عليه الأنصاري فضربه بالسيف، فربك أعلم أينا قتله، فإن كنت قتلته فقد قتلت خير الناس بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وقد قتلت شر الناس..

قال ابن إسحق: وحدثني عبد الله بن الفضل عن سليمان بن يسار عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وكان قد شهد اليمامة قال: سمعت يومئذ صارخًا يقول: قتله العبد الأسود (١) .

أما العنسي فاسمه عبهلة بن كعب بن غوث من بلد يقال لها: كهف حنان، خرج واستولى على نجران ثم صنعاء وسيطر على اليمن بأجمعه واشتد ملكه، وتزوج بامرأة شهر ابن باذام حاكم صنعاء من قِبَل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكانت حسناء جميلة مؤمنة بالله ورسوله محمد، وهي ابنة عم فيروز الديلمي، واستطاعت بحيلة ومكر أن تيسر للمسلمين قتل الأسود العنسي في فراشه فدخل عليه فيروز ودق عنقه (٢) .

وقد سبق أن نقلنا عن علماء التاريخ نماذج من إهانات الله لهؤلاء المتنبئين فقد بصق مسيلمة في بئر ليغزر ماؤه فغاض، وسقى بوضوئه نخلاً فيبست، ومسح رءوس ولدان تبريكًا فقَرِعَت رءوسهم ولَثِغَت ألسنتهم، ودعا لرجل أصابه وجع في عينيه فعمي..

فهذه الخوارق للعادات وقعت على غير مراد صاحبها فتسمى إهانة، أراد الله بها إظهار كذبه..

* * *

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ تحقيق الأستاذ مصطفى السقا وآخرين (ج٢ ص ٧٢) ط. الحلبي سنة ١٩٥٥

(٢) راجع البداية والنهاية - ابن كثير (ج٦ ص٣٠٧) .

الاستدراج

الاستدراج في مصطلح المتكلمين: أمر خارج للعادة يظهره الله تعالى على يد فاسق مدع للألوهية، خديعة له ومكرًا به، كما سيحصل للمسيخ الدجال من أمور تخرج عن نطاق النواميس المعتادة.. ولكن لكونه يدعي الألوهية فلا خطر على الناس، فهناك عاصم عقلي يمنع من التصديق به مهما أحدث من خوارق العادات، فالمسيخ الدجال إنسان يأكل ويشرب، وأعور كأن عينه عنبة طافئة، ولا يعقل بحال من الأحوال أن يكون إلهًا، فليست الألوهية كألفاظ البطولة والشجاعة نمنحها لبعض البشر، فكل ما طرأ ببالك فالله بخلاف ذلك..

ومن الأحاديث الواردة في هذا الشأن ما رواه مسلم بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: حدثنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يومًا حديثًا طويلاً عن الدجال، فكان فيما حدثنا قال: «**يأتي وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة (طرقها) فينتهي إلى بعض السباخ التي تلي المدينة، فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس أو من خير الناس، فيقول له: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حديثه، فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته أتشكون في الأمر؟! فيقولون: لا، قال: فيقتله ثم يحييه، فيقول حين يحييه: والله ما كنت فيك قط أشد بصيرة مني الآن، فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه**».

ونقل الإمام النووي عن القاضي عياض قوله:

«ولهذه الدلائل وغيرها لا يغتر به إلا رعاع من الناس لسد الحاجة والفاقة رغبة في سد الرمق، أو تقية وخوفًا من أذاه، لأن فتنته عظيمة جدًا تدهش العقول وتحير الألباب، مع سرعة مروره في الأمر فلا يمكث بحيث يتأمل الضعفاء حاله ودلائل الحدوث فيه والنقص، فيصدقه من صدقه في هذه الحالة، ولهذا حذرت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين من فتنته ونبهوا على نقصه ودلائل إبطاله، وأما أهل التوفيق فلا يغترون به، ولا يخدعون لما معه لما ذكرناه من الدلائل المكذبة له مع ما سبق لهم به من العلم بحاله، ولهذا يقول له الذي يقتله ثم يحييه: ما ازددت فيك إلا بصيرة» [1].

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (ج١٨ ص ٥٨).


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الفصل الرابع

مسيرة الأنبياء

- عدد الأنبياء.
- الزمان والمكان في تاريخ الأنبياء.

المبحث الأول:

عدد الأنبياء

- أول نبي .
- العدد الإجمالي .
- العدد القرآني .
- شخصيات مختلف فيها.

أول نبي

بدأت المسيرة الطاهرة لأنبياء الله تعالى ورسله من الإنسان الأول، فكان آدم عليه السلام أول إنسان وأول نبي . .

أما أن آدم أول إنسان فصريح القرآن المجيد في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١) .

وقد تحدث القرآن حديثًا طويلاً عن مراحل خلق آدم وسجود الملائكة له، وتمرد إبليس، وإسكان آدم وزوجه الجنة وهبوطهما إلى الأرض وانتشار ذريتهما. . قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (٢) .

وأما أن آدم أول نبي فقد كرمه الله واصطفاه في الملأ الأعلى وعلى ظهر هذه الأرض، وكانت له مناجاة مع الله تعالى في الموقعين، وكلمه الله تكليمًا. .

لقد علم الله آدم الأسماء كلها ومنحه كلمات الاصطفاء والاجتباء، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٣) .

وهبط آدم إلى الأرض محملاً بالرسالة إلى بنيه وذريته، قال جل شأنه: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤) .

وهذا الوعد الإلهي يتحقق ابتداء في آدم كي ينطلق في عمارة الكون بمنهج الله، ويربي ذريته على عقيدة الحق وشرعة العدل. . وقد جعل الله آدم فاتحة المصطفين من البشر فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٥) .

- وهناك خلاف بين العلماء في توقيت النبوة لآدم: هل كانت النبوة في الملأ الأعلى عقب الخلق مباشرة ، أوكانت النبوة بعد هبوط آدم إلى الأرض للقيام بمهمة الخلافة؟

ذهب المعتزلة إلى أن آدم نبي منذ خلقه الله، ويرون أن تعليمه الأسماء معجزة دالة على نبوته، ويقولون إنه بعث إلى حواء أو إلى الملائكة الذين تحداهم بتعليم الأسماء. .

(١) البقرة: ٣٠ ـ ٣١ . (٢) النساء: ١ . (٣) البقرة: ٣٧ .
(٤) البقرة: ٣٨ ـ ٣٩ . (٥) آل عمران: ٣٣ .

ولكن كيف يبعث آدم إلى الملائكة وهم رسل مفطورون على الطاعة؟

أجاب المعتزلة بأنه يجوز الإرسال إلى الرسول كبعثة إبراهيم عليه السلام إلى لوط عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١).

فإن لوطًا عليه السلام آمن بإبراهيم الخليل وهاجر معه إلى أرض الشام ثم أرسل في حياة الخليل إلى أهل قرية «سدوم».

وجاء اعتراض آخر وهو أن المعصية لا تقع من الأنبياء فكيف وقعت معصية آدم بالأكل من الشجرة المنهي عنها وهو نبي؟

وقد ساق الإمام الزمخشري الاعتراض وأجاب عنه في تفسيره فقال: الخطيئة التي أهبط بها آدم إن كانت كبيرة فالكبيرة لا تجوز على الأنبياء، وإن كانت صغيرة فلِمَ جرى عليه ما جرى بسببها من نزع اللباس، والإخراج من الجنة، والإهباط من السماء - كما فُعِل بإبليس - ونسبته إلى الغي والعصيان ونسيان العهد وعدم العزيمة والحاجة إلى التوبة؟

قلت: ما كانت إلا صغيرة مغمورة بأعمال قلبه من الإخلاص والأفكار الصالحة التي هي أجل الأعمال وأعظم الطاعات، وإنما جرى عليه ما جرى تعظيمًا للخطيئة وتفظيعًا لشأنها وتهويلاً، ليكون ذلك لطفًا له ولذريته في اجتناب الخطايا واتقاء المآثم، والتنبيه على أنه أخرج من الجنة بخطيئة واحدة فكيف يدخلها ذو خطايا جمة» (٢).

وذهب أهل السنة إلى أن آدم ما كان نبيًا إلا بعد هبوطه إلى الأرض، وأن ما وقع منه مخالفًا للنهي الإلهي كان قبل النبوة، ويرون أن المعصية الصغيرة قبل النبوة غير قادحة..

ويرفض أهل السنة أن يكون آدم في الملأ الأعلى مبعوثًا إلى حواء أو الجن أو الملائكة لأن حواء تلقت التكليف من الله مباشرة في قوله تعالى: ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾، وما كان آدم واسطة بلاغ أو تبليغ..

ولم تكن الجن مقيمة في الجنة حتى يبعث إليها آدم..

وليس مقبولاً على مذهب المعتزلة أن يبعث آدم إلى الملائكة، لأن الملائكة عند المعتزلة أفضل من البشر، ولا يجوز جعل الأدنى رسولاً إلى الأعلى والأشرف..

ولا يعقل أن يكون آدم نبيًا مبعوثًا ولا أحد يبعث إليه فليس هناك فائدة من الرسالة، وهذا عبث يتنزه عنه المولى جل شأنه..

قال الإمام سعد الدين التفتازاني جوابًا عن معصية آدم: والجواب أنه كان قبل البعثة،

---

(١) العنكبوت: ٢٦.

(٢) الكشاف (ج١ ص٢٧٥) ط. طهران، وراجع التفسير الكبير للرازي (ج٢ ص١٩٣) ط. دار الفكر.

كيف ولم تكن له في الجنة أمة، أو كان عن نسيان لقوله تعالى: ﴿فنسي ولم نجد له عزما﴾. أو كان زلة وسهوًا حيث ظن أن المنهي شجرة بعينها، وقد قرب فردًا آخر من جنسها، وإنما عوتب لترك التيقظ والتنبه لإصابة المراد، وقد يعتذر بأنه وإن كان عمدًا لكن لم يكن إلا صغيرة، وهذا هو الظاهر ...» (١).

ونقل الإمام عبد القاهر البغدادي إجماع المسلمين وأهل الكتاب على أن أول من أرسل من الناس آدم عليه السلام (٢).

- ويرى الشيخ عبد الوهاب النجار أن القرآن الكريم لم يذكر لفظ النبوة بإزاء آدم كما ذكر ذلك بإزاء غيره من الأنبياء كإسماعيل وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم، ولكن ذكر أنه خاطبه بلا واسطة وشرع له في ذلك الخطاب، فأمره ونهاه، وأحل له وحرم عليه بدون أن يرسل إليه رسولاً، وهذا هو كل معاني النبوة.

فمن هذه الناحية نقول إنه نبي وتطمئن أنفسنا بذلك.

وأما رسالته فالأمر فيها مختلف فيه، وشأننا أن نفوض علم ذلك إلى الله تعالى.

ويؤيد الشيخ النجار رأيه بحديث أبي هريرة في الشفاعة، الوارد في صحيح مسلم وفيه أن الناس يذهبون إلى نوح ويقولون له: أنت أول رسل الله إلي الأرض، ويستنتج الشيخ أنه لو كان آدم رسولاً لما ساغ هذا القول، ويرفض تأويل العلماء بأن نوحًا أول رسول بعد الطوفان ويصفه بأنه تأويل متكلف (٣).

ونحن نرى أن التفرقة بين النبوة والرسالة لا وجه لها، فكل رسول نبي وكل نبي رسول، والقول بغير ذلك يعوزه الدليل الصحيح..

ثم إن مبررات النبوة لآدم هي بعينها مبررات رسالته..

وحديث الشفاعة لا ينفي رسالة آدم عليه السلام طالما كان هناك تأويل سائغ كأن يقال إن نوحًا عليه السلام أول رسول بعد الطوفان ـ على القول بعموم الطوفان لسطح الأرض ـ أو أن نوحًا أول رسول بعث لقوم كافرين بعد الاختلاف الذي طرأ على البشرية المشار إليه في قوله جل شأنه ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ (٤).

لكن آدم بعث لأبنائه وكانوا مؤمنين على الفطرة السوية، فثبتهم آدم على دين الحق وبيّن لهم هدي الشريعة في العبادة والمعاملة ..

---

(١) شرح المقاصد - تحقيق د/عبد الرحمن عميرة (ج٥ ص٥٣) ط. عالم الكتب - بيروت.

(٢) أصول الدين (ص١٥٩) ط. دار الكتب العلمية - بيروت.

(٣) قصص الأنبياء (ص ١٠) ط مؤسسة الحلبي وشركاه.

(٤) يونس: ١٩.

العدد الإجمالي

بعث الله تعالى رسلاً إلى البشر حيثما كانوا، كي يرفعوا لواء الحق، ويأخذوا بأيدي الخلق إلى سواء السبيل.. قال الله جل شأنه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (١) .

ولسنا ندري على وجه التفصيل عدد هؤلاء الأنبياء والرسل، ولكن القرآن المجيد وهو يقص علينا القصص الحق حول الرسالات والرسل ذكر عددًا منهم عبرة لأولي الألباب.. قال الله عز وجل: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ (٢) .

وهناك روايات تذكر عدد الأنبياء والمرسلين، فوصلت بهم إلى مائة ألف وأربعة وعشرين ألفًا من الأنبياء، وثلاثمائة وثلاثة عشر رسولاً..

وذكرت بعض الروايات أن سيدنا محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث على إثر ثمانية آلاف نبي، وفي بعضها أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاتم ألف نبي..

وهي كلها روايات لم تسلم من مطعن، ولا يعتمد عليها عقديًا، بل لو سلمت جدلاً فإن العدد في النصوص الشرعية ـ ما عدا نصوص العبادات ـ لا مفهوم له، ولا يعني التحديد القاطع وإنما يقصد به الكثرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣) .

فسواء كانت البحور سبعة أو سبعين أو سبعمائة فلن تنفد كلمات الله..

وأيا ما كان فنحن نسوق إحدى هذه الروايات حتى لا يخدع بها أحد:

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: دخلت المسجد فإذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالس وحده، فجلست إليه، فقلت: يا رسول الله، إنك أمرتني بالصلاة، قال: **«الصلاة خير موضوع فاستكثر أو استقل»** قلت: يا رسول الله، فأي الأعمال أفضل؟ قال: **«إيمان بالله وجهاد في سبيله»**، قلت: يا رسول الله، فأي المؤمنين أفضل؟ قال: **«أحسنهم خلقًا»** ، قلت: يا رسول الله، فأي المسلمين أسلم؟ قال: **«من سلم الناس من لسانه ويده»** قلت: يا رسول الله، فأي الهجرة أفضل؟ قال: **«من هجر السيئات»** قلت: يا رسول الله، أي الصلاة أفضل؟ قال: **«طول القنوت»** قلت: يا رسول الله، فأي الرقاب أفضل؟ قال:

---

(١) فاطر: ٢٤ ـ ٢٦ . (٢) النساء: ١٦٤ .

(٣) لقمان: ٢٧ .

«أغلاها ثمنًا وأنفسها عند أهلها» قلت: يا رسول الله، فأي الصدقة أفضل؟ قال: «جهد من مقل، وسر إلى فقير» قلت: يا رسول الله، فأي آية ما أنزل عليك أعظم؟ قال: «آية الكرسي» ثم قال: «يا أبا ذر، وما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة».

قال أبو ذر: قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا» قلت: يا رسول الله، كم الرسل من ذلك؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثة عشر، جم غفير، كثير طيب» قلت: فمن كان أولهم؟ قال: «آدم» قلت: أنبي مرسل؟ قال: «نعم، خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وسواه قبيلاً» ثم قال: «يا أبا ذر أربعة سريانيون: آدم، وشيث، وخنوخ وهو إدريس وهو أول من خط بقلم، ونوح، وأربعة من العرب: هود، وشعيب، وصالح، ونبيك يا أبا ذر، وأول أنبياء بني إسرائيل موسى، وآخرهم عيسى، وأول الرسل آدم، وآخرهم محمد».

قلت: يا رسول الله، كم كتاب أنزله الله؟ قال: «مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل الله على شيث خمسين صحيفة، وعلى خنوخ ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى من قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان» قلت: يا رسول الله، ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: «كانت كلها: يا أيها الملك المسلط المبتلى المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم، فإني لا أردها ولو كانت من كافر.. وعلى العاقل أن تكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفكر في صنع الله، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب.. وعلى العاقل ألاَّ يكون ظاعنًا إلا لثلاث: تزود لمعاد، أو مرمة لمعاش، أو لذة في غير محرم.. وعلى العاقل أن يكون بصيرًا بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظًا للسانه.. ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه».

قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف موسى؟ قال: «كانت عبرًا كلها، عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح، وعجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب، وعجبت لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم يطمئن إليها، وعجبت لمن أيقن بالحساب غدًا ثم هو لا يعمل» قلت: يا رسول الله، فهل في أيدينا شيء مما كان في أيدي إبراهيم وموسى وما أنزل عليك؟ قال: «نعم، اقرأ يا أبا ذر ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾».

قلت: يا رسول الله، فأوصني، قال: «أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس أمرك» قلت:

يا رسول الله، زدني، قال: «عليك بتلاوة القرآن، وذكر الله، فإنه ذكر لك في السماء ونور لك في الأرض» قلت: يا رسول الله، زدني، قال: «إياك وكثرة الضحك، فإنه يميت القلب، ويذهب بنور الوجه» قلت: يا رسول الله، زدني، قال: «عليك بالجهاد، فإنه رهبانية أمتي» قلت: زدني، قال: «عليك بالصمت إلا من خير فإنه مطردة للشيطان، وعون لك على أمر دينك» قلت: زدني، قال: «انظر إلى من هو تحتك ولا تنظر إلى من هو فوقك، فإنه أجدر لك ألاَّ تزدري نعمة الله عليك» قلت: زدني، قال: «أحبب المساكين وجالسهم، فإنه أجدر ألاَّ تزدري نعمة الله عليك» قلت: زدني، قال: «صل قرابتك وإن قطعوك،» قلت: زدني، قال: «قل الحق وإن كان مرًّا» قلت: زدني، قال: «لا تخف في الله لومة لائم» قلت: زدني، قال: «يردك عن الناس ما تعرف من نفسك، ولا تجد عليهم فيما تحب، وكفى بك عيبًا أن تعرف من الناس ما تجهل من نفسك، أو تجد عليهم فيما تحب» ثم ضرب بيده صدري فقال: «يا أبا ذر، لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حسب كحسن الخلق» .

هذا الحديث على طوله أشبه بالتحقيق الصحفي، وهو يجمع شتاتًا من النصوص والآثار والحكم والإسرائيليات، وقد رواه ابن مردويه في تفسيره.

وأورده الحافظ أبو حاتم بن حبان البستي في كتابه «الأنواع والتقاسيم»، ووسمه بالصحة، وخالفه أبو الفرج بن الجوزي فذكر هذا الحديث في كتابه «الموضوعات» . .

وقد روي هذا الحديث من وجه آخر عن صحابي آخر هو أبو أمامة، ولم يسلم في إسناده من الضعفاء . .[1] .

* * *

(١) راجع الحديث بطوله ورواياته والحكم عليه في تفسير ابن كثير (ج١ ص٥٨٦) ط. دار المعرفة. بيروت.

العدد القرآني للأنبياء

يحكي العلماء أن الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن المجيد خمسة وعشرون نبيًا، ونظموا شعرًا يقول:

في تلك حجتنا منهم ثمانية   من بعد عشر ويبقى سبعة وهمُ
إدريس، هود، شعيب، صالح، وكذا   ذو الكفل، آدم، بالمختار قد ختموا

والإشارة إلى الآية الكريمة في سورة الأنعام، وهي: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١) .

ونحن نرى أن العدد القرآني المجمع عليه للأنبياء عليهم الصلاة والسلام هو اثنان وعشرون نبيًا، وهم:

١ ـ آدم.	٢ ـ نوح.	٣ ـ هود.	٤ ـ صالح.	٥ ـ إبراهيم.
٦ ـ لوط.	٧ ـ إسماعيل.	٨ ـ إسحق.	٩ ـ يعقوب.	١٠ ـ يوسف.
١١ ـ شعيب.	١٢ ـ أيوب .	١٣ ـ موسى.	١٤ ـ هارون.	١٥ ـ داود.
١٦ ـ سليمان.	١٧ ـ يونس .	١٨ ـ اليسع.	١٩ ـ زكريا .	٢٠ ـ يحيى.
٢١ ـ عيسى.	٢٢ ـ محمد . صلى الله عليهم جميعًا وسلم.			

ويبقى إدريس وإلياس، هل هما نبيان أو اسمان لنبي واحد؟

فإن عددناهما نبيين ارتفع العدد إلى أربعة وعشرين نبيًا.

ثم نأتي إلى ذي الكفل، وفتى موسى «يوشع» ، والخضر، وعزير، ولقمان، وتبع. هل هم أنبياء أو عباد لله صالحون؟

فلو رجحنا أنهم أنبياء صار العدد ثلاثين نبيًا. .

ونختم بتساؤل حول رسل القرية الذين أشار إليهم القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (٢) .

---

(١) الأنعام: ٨٣ ـ ٨٦ .   (٢) يس: ١٣ ـ ١٧ .

وقد اختلف المفسرون: هل هؤلاء الثلاثة رسل عيسى عليه السلام إلى قرية إنطاكية؟ أو هم رسل من الله تعالى إلى قرية ما؟

وأيا ما كان فإن القرآن لم يذكر أسماء هؤلاء الثلاثة، فلا نعدهم في أسماء الأعلام للأنبياء، ويكونون من جملة المصطفين الذين نؤمن بهم إجمالاً..

ويتحدث الناس عن نبوة شيث بن آدم، ويقولون: إن البشر ينسبون اليوم كلهم إليه بعد أن انقرض إخوته وبادوا . .

ولم يتحدث القرآن الكريم عن شيث اسمًا ولا وصفًا، ولا نعرف أثرًا إسلاميًا صحيحًا في ذلك، اللهم إلا حديثًا رواه ابن حبان عن أبي ذر مرفوعًا أن الله أنزل على شيث خمسين صحيفة، وقد حكم ابن الجوزي على هذا الحديث بالوضع.

وهذا العدد من الصحف يتناقض مع ما ذكره ابن النديم الذي نسب إليه في مروياته تسعًا وعشرين صحيفة فقط . .[1].

ولسنا نعتمد في العقائد على مثل هذه الآثار والمرويات، وبخاصة أنها منقولة عن أهل الكتاب الذين حرفوا الكلم عن مواضعه وغيروا وبدلوا في الوحي المنزل إليهم. .

وفي صحيح البخاري بسنده عن حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطًا من قريش بالمدينة، وذكر كعب الأحبار فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا ـ مع ذلك ـ لنبلو عليه الكذب.

والمراد بالمحدثين أنداد كعب ممن كان من أهل الكتاب الذين أسلموا أو ممن نظر في كتب أهل الكتاب فنقل عنها . .

وكعب الأحبار أسلم في عهد عمر، وقيل: في خلافة أبي بكر، وقيل: أسلم في عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وتأخرت هجرته، وكان يهوديًا من أحبارهم.

والضمير في قوله «لنبلو عليه» يعود على أحد أمرين:

١ ـ الكتاب، فأخبار كتب اليهود محرفة لا تتلاءم مع القصص الحق الذي جاء به القرآن.

٢ ـ كعب الأحبار، بمعنى أنه ينقل أخبارًا غير مطابقة للواقع تحدثت بها كتب اليهود لا أنه يتعمد الكذب.

* * *

---

(١) الفهرست. ط . دار المعرفة ـ بيروت.

شخصيات مختلف فيها

إدريس وإلياس:

نص القرآن على نبوة إدريس في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (١) .

وإدريس هو خنوخ في التوراة العبرية، وأخنوخ في الترجمة العربية.

ويرى علماء الأنساب أنه في عمود نسب الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وأنه أول من خط بالقلم، وجاء في حديث الإسراء، أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - مرَّ به وهو في السماء الرابعة..

ونص القرآن على رسالة إلياس في قوله جل شأنه: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢) .

وذكره القرآن باسم «إلياسين» في قوله تعالى: ﴿سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ (٣) .

أي سلام على إلياس، والعرب تلحق النون في أسماء كثيرة وتبدلها من غيرها كما قالوا في إسماعيل: إسماعين، وفي إسرائيل: إسرائين، وفي طور سيناء: طور سينين..

ويرى بعض العلماء أن إدريس وإلياس اسمان لشخصية واحدة.

ففي صحيح البخاري يذكر عن ابن مسعود وابن عباس أن إلياس هو إدريس.

وهناك قراءة عن ابن مسعود تقول: «سلام على إدراسين» .

قال الإمام ابن حجر:

«أما قول ابن مسعود فوصله عبد بن حميد وابن أبي حاتم بإسناد حسن عنه قال: إلياس هو إدريس، ويعقوب هو إسرائيل.

وأما قول ابن عباس فوصله جويبر في تفسيره عن الضحاك عنه، وإسناده ضعيف، ولهذا لم يجزم به البخاري.

وقد أخذ أبو بكر بن العربي من هذا أن إدريس لم يكن جدًّا لنوح، وإنما هو من بني إسرائيل، لأن إلياس قد ورد أنه من بني إسرائيل.

واستدل على ذلك بقوله عليه السلام للنبي - صلى الله عليه وسلم - (في ليلة الإسراء): «مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح» ولو كان من أجداده لقال له كما قال له آدم وإبراهيم: «والابن الصالح» وهو استدلال جيد إلا أنه قد يجاب عنه بأنه قال ذلك على

---

(١) مريم: ٥٦ - ٥٧ . (٢) الصافات: ١٢٣ . (٣) الصافات: ١٣٠ .

سبيل التواضع والتلطف، فليس ذلك نصًا فيما زعم»[1] .

والذي عليه الجمهور أن إدريس نبي قبل نوح وبعد آدم وشيث، ويقال إنه ولد ببابل وهاجر إلى مصر، وأن إلياس نبي بعد موسى وهارون، ونقل ابن قتيبة أن إلياس عاصر ملك بعلبك المسمى «أحب» وامرأته إزبيل، وكانت قتالة للأنبياء، وهي التي قتلت يحيى بن زكريا [2] .

فتكون نبوة إلياس مصاحبة لنبوة زكريا ويحيى عليهم السلام.

ذو الكفل:

لنا وقفات مع اللفظ، والشخصية، والعصمة . .

فمن حيث اللفظ:

الكفل هو النصيب، فمعنى ذي الكفل صاحب النصيب المضاعف من الثواب.

وقيل: ذو الكفل من الكفالة، والمعنى أن ذا الكفل تكفل بشيء يقوم به ويؤتمن عليه . .

ومن حيث الشخصية:

قيل: إن ذا الكفل اسم لشخص، وقيل: وصف، واختلفوا في الموصوف، فقيل: هو وصف لزكريا، أو إلياس، أو ليوشع، وقالوا: خمسة من الأنبياء سماهم الله باسمين، فإسرائيل هو يعقوب، وإلياس هو ذو الكفل، وعيسى هو المسيح، ويونس هو ذو النون، ومحمد هو أحمد عليهم السلام.

وهناك من يرى أن ذا الكفل رجل صالح، وملك عادل، تكفل لنبي زمانه بأمر قومه، وساقوا رواية عن ابن عباس قال: إن نبيًا من أنبياء بني إسرائيل آتاه الله الملك والنبوة ثم أوحى الله إليه إني أريد قبض روحك فاعرض ملكك على بني إسرائيل، فمن تكفل لك أنه يصلي بالليل حتى يصبح، ويصوم بالنهار فلا يفطر، ويقضي بين الناس فلا يغضب، فادفع ملكك إليه . . فقام ذلك النبي في بني إسرائيل فأخبرهم بذلك، فقام شاب وقال: أنا أتكفل لك بهذا، فقال: في القوم مَن هو أكبر منك، فاقعد، ثم صاح الثانية والثالثة، فقام الرجل وقال: أتكفل لك بهذه الثلاث، فدفع إليه ملكه ووفى بما ضمن . . إلخ.

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (ج٦ ص٣٧٣) .

(٢) المعارف لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتية (ص ٣٠) ط. دار الكتب العلمية، ولمزيد من التفاصيل راجع «البداية والنهاية» لابن كثير (ج١ صـ ٩٩، ص٣٣٧) ط. مكتبة المعارف بيروت.

وساق ابن أبي حاتم عن كنانة بن الأخنس قال: سمعت الأشعري[1] وهو يقول على هذا المنبر: ما كان ذو الكفل بنبي، ولكن كان - يعني في بني إسرائيل - رجل صالح يصلي كل يوم مائة صلاة، فتكفل له ذو الكفل من بعده، فكان يصلي كل يوم مائة صلاة، فسمي ذا الكفل..

وهذه الروايات لا تسلم من مطعن، ولا تخلو من مقال، والذي نختاره أن ذا الكفل نبي ورد مقرونًا بأنبياء في موضعين من القرآن الكريم:

١ - في سورة الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [2].

٢ - وفي سورة ص، قال جل شأنه: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ [3].

فما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي.

والزعم بأن ذا الكفل وصف لزكريا، ينفيه إيراد قصة زكريا بعد ثلاث آيات من آية ذي الكفل في سورة الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [4].

وليس بسديد أن يقال إن ذا الكفل وصف ليوشع، فإن يوشع فتى موسى عليه السلام، لم يصرح القرآن بنبوته بل لم يرد له اسم في القرآن..

ولا يصح أن يكون وصفًا لإلياس لأنا إذا قلنا إن إلياس هو إدريس - كما يرى ابن مسعود وابن عباس - فقد ذكره القرآن مصاحبًا لذي الكفل في سورة الأنبياء فيكون غيره..

وإذا قلنا إن إلياس غير إدريس فقد نبهنا إلى أن إلياس عاصر زكريا كما نقل ابن قتيبة وأن إدريس كان قبل نوح لكن ذا الكفل ذكر في سورتي الأنبياء وص، عقب قصة أيوب حتى قال بعضهم إنه ابن أيوب.

ومن حيث العصمة:

الأنبياء معصومون من كبائر الإثم والفجور، ويمثلون الخلق العظيم، وذو الكفل واحد من هؤلاء الأنبياء وصف بالصبر والصلاح والخير وتفضل الله عليه بالرحمة والنبوة..

لكن كيف يستقيم ذلك مع حديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حديثًا، لو لم أسمعه إلا

---

(١) يعني: أبا موسى الأشعري.
(٢) الأنبياء: ٨٥ - ٨٦.
(٣) ص: ٤٨.
(٤) الأنبياء: ٨٩.

مرة أو مرتين، حتى عد سبع مرات، ولكن قد سمعته أكثر من ذلك، قال: «**كان الكفل من بني إسرائيل، لا يتورع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته، أرعدت وبكت، فقال: ما يبكيك؟ أكرهتك؟ قالت: لا، ولكن هذا عمل لم أعمله قط، وإنما حملتني عليه الحاجة، قال: فتفعلين هذا ولم تفعليه قط..!! ثم نزل فقال: اذهبي بالدنانير لك، ثم قال: والله لا يعصي اللهَ الكفلُ أبدًا، فمات من ليلته، فأصبح مكتوبًا على بابه: قد غفر الله للكفل**».

وقد علق الإمام ابن كثير في تفسيره بأن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، وإسناده غريب، لكنه في البداية والنهاية قال: ورواه الترمذي من حديث الأعمش وقال: حسن، وذكر أن بعضهم رواه فوقفه على ابن عمر، فهو حديث غريب جدًا، وفي إسناده نظر (١) .

ونحن نرى أن الحديث - رغم ما في إسناده - لا علاقة له بنبي الله ذي الكفل، لأن الحديث يروي قصة رجل قضى حياته كلها في المعصية والخطيئة، ولما حانت لحظة التوبة صاحبتها لحظة الموت..

فليس يعقل أن يكون هذا الرجل نبيًا قبل التوبة لأنه لا يتورع من ذنب، وليس يعقل أن يكون نبيًا بعد التوبة لأنه مات من ليلته، فمتى بعث نبيًا ؟!

ثم إن الحديث سماه الكفل، والقرآن تكلم عن ذي الكفل، فهما شخصان مختلفان .

* * *

الخضر:

في القرآن الكريم سورة تسمى سورة الكهف، تضمنت حديثًا عجبًا يتعلق بموسى عليه السلام حين التقى بعبد صالح أتى بأمور يقف العقل حيالها مبهوتًا . .

لقد خرق العبد الصالح السفينة التي يركبها الناس، وقتل الغلام الصغير، وأقام الجدار لقوم رفضوا إطعامه واستضافته..

وكان فعل هذه الأشياء من العبد الصالح بأمر الله وليس من تلقاء نفسه، لحكمة بالغة تنبئ أن وراء الظواهر حقائق لا تعلم إلا بالوحي المعصوم، وأن الأحداث في مرأى العين ليست هي كل شيء، وأن التسليم المطلق لله تعالى هو حقيقة الإيمان، وأن هناك تدبيرًا إلهيًا أعلى..

---

(١) راجع: تفسير الرازي (ج٢٢ ص٢١٠) وتفسير ابن كثير (ج٣ ص١٩٠) والبداية والنهاية (ج١ ص٢٢٥).

هذا العبد الصالح لم يرد له اسم في القرآن الكريم، لكن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سماه «خضراً»، ففي صحيح البخاري بسنده عن عبيد الله بن عبد الله أخبره عن ابن عباس أنه تمارى هو والحر بن قيس الفزاري في صاحب موسى، قال ابن عباس: هو خضر. فمرَّ بهما أبي بن كعب، فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيه هل سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يذكر شأنه؟ قال: نعم، سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «**بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل جاءه رجل فقال: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال: لا، فأوحى الله إلى موسى، بلى عبدنا خضر، فسأل موسى السبيل إليه، فجُعل له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع، فإنك ستلقاه، فكان يتبع الحوت في البحر، فقال لموسى فتاه: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره، فقال موسى: ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصا، فوجدا خضراً، فكان من شأنهما الذي قص الله في كتابه**».

وفي تفسير لفظ «الخضر» جاء في صحيح البخاري بسنده عن أبي هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**إنما سمي الخضرَ لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء**».

وفي شرح هذا الحديث قال الإمام ابن حجر: الفرو: الحشيش الأبيض وما أشبهه، أو أرض بيضاء ليس فيها نبات. وحكي عن مجاهد، أنه قيل له الخضر؛ لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله..[1]

واختلف الناس في نبوته وحياته:

وساق الإمام ابن كثير دلائل نبوته من وجوه هي:

أحدها: قوله تعالى: ﴿**فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا**﴾[2]

فالرحمة هي النبوة كما في قوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ**﴾[3].

والعلم اللدني هو الوحي كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾[4].

الثاني: قول موسى له: ﴿**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ**

---

(١) فتح الباري بشرح البخاري (ج٦ ص٤٣١).
(٢) الكهف: ٦٥.
(٣) القصص: ٨٦.
(٤) طه: ١١٤.

معي صبرًا ﴿٦٧﴾ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرًا ﴿٦٨﴾ قال ستجدني إن شاء الله صابرًا ولا أعصي لك أمرًا ﴿٦٩﴾ قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرًا﴾ [(١)] .

فلوكان وليًا وليس بنبي، لم يخاطبه موسى بهذه المخاطبة، ولم يرد على موسى هذا الرد.

وموسى إنما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم، الذي اختصه الله به دونه، فلو كان غير نبي لم يكن معصومًا، ولم تكن لموسى - وهو نبي عظيم ورسول كريم واجب العصمة- كبير رغبة، ولا عظيم طلبة في علم وليّ غير واجب العصمة، ولما عزم على الذهاب إليه، والتفتيش عليه، ولو أنه يمضي حقبًا من الزمان قيل ثمانين سنة.

ثم لما اجتمع به تواضع له، وعظمه، واتبعه في صورة مستفيد منه - دلّ على أنه نبي مثله يوحى إليه، وقد خص من العلوم اللدنية والأسرار النبوية بما لم يطلع عليه موسى الكليم، نبي بني إسرائيل الكريم.

الثالث: أن الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام، وما ذاك إلا للوحي إليه من الملك العلام، وهذا دليل مستقل على نبوته، وبرهان ظاهر على عصمته؛ لأن الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى في خلده، لأن خاطره ليس بواجب العصمة، إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق .

ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلم، علمًا منه بأنه إذا بلغ يكفر ويحمل أبويه على الكفر لشدة محبتهما له، فيتابعانه عليه، ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته، صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته ـ دلّ ذلك على نبوته وأنه مؤيد من الله بعصمته. .

الرابع: أنه لما فسر الخضر تأويل تلك الأفاعيل لموسى، ووضح له عن حقيقة أمره، قال بعد ذلك كله ﴿رحمة من ربك وما فعلته عن أمري﴾ [(٢)] ، يعني ما فعلته من تلقاء نفسي، بل أمرت به وأوحي إليّ فيه. .

فدلت هذه الوجوه على نبوته. . » [(٣)] .

- **وأما القول بحياة الخضر الآن:** فهو من أساطير الاولين، وأكاذيب الرواة، وغرائب الخيال. . ولم يصح سند في ذلك مرفوع إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ونحن نلخص جملة ما قاله العلماء في رفض حياة الخضر الآن فيما يلي:

---

(١) الكهف: ٦٦ ـ ٧٠ . (٢) الكهف: ٨٢ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (ج١ ص٣٢٨) .

أولاً: تصدي الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه «عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر» للأحاديث الواردة في ذلك من المرفوعات فبيّن أنها موضوعات، ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم فبين ضعف أسانيدها ببيان أحوالها وجهالة رجالها.

ثانيًا: الخضر بشر يدخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾[١]، ولا يجوز تخصيصه إلا بدليل صحيح، ولم يثبت دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله..

ثالثًا: لو كان الخضر حيًا إلى زمن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لوجب عليه أن يكون بين يديه يؤمن بما أنزل عليه وينصره، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾[٢].

ولقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في مسند الإمام أحمد: «**والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًا ما وسعه إلا أن يتبعني**».

فلو فرض أن الأنبياء أحياء مكلفون في زمن سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكانوا كلهم أتباعًا له وتحت أوامره وفي عموم شرعه..

وعندما ينزل عيسى عليه السلام آخر الزمان سيكون واحدًا من أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

رابعًا: لم ينقل بسند صحيح ولا حسن أن الخضر اجتمع برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو شهد قتالاً معه..

وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم بدر: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة ـ يعني المسلمين ـ لا تعبد في الأرض**».

فلو كان الخضر حيًا لكان وقوفه تحت راية الإسلام يومئذ أشرف مقاماته، وأعظم غزواته..

ولا يصح أن يقال إنه كان حاضرًا ولم يره أحد؛ لأن هذا مجرد وهم لا دليل عليه، ولو حدث لنزل به الوحي كما نزل بقتال الملائكة، أو أخبر به الرسول..

خامسًا: جاءت أحاديث صحيحة تؤكد موت كل أحد عاصر الرسول على رأس مائة سنة، فلو كان الخضر حيًا وأدرك زمن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه لم يعش بعد مائة سنة، فهو الآن مفقود ميت لا وجود له بحال من الأحوال.

---

(١) الأنبياء: ٣٤.　(٢) آل عمران: ٨١.

ومن هذه الأحاديث ما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلى ليلة العشاء ثم قال: «**أرأيتم ليلتكم هذه، فإنه إلى مائة سنة لا يبقى ممن هو على وجه الأرض اليوم أحد**» . وفي رواية: «**عين تطرف**» قال ابن عمر: فوَهَل[1] الناس في مقالة رسول الله هذه، وإنما أراد انخرام قرنه».

قال الإمام ابن كثير: لو كان (الخضر) باقيًا بعده (بعد الرسول) لكان تبليغه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأحاديث النبوية، والآيات القرآنية، وإنكاره لما وقع من الأحاديث المكذوبة، والروايات المقلوبة، والآراء البدعية، والأهواء العصبية، وقتاله مع المسلمين في غزواتهم، وشهوده جمعتهم وجماعاتهم، ونفعه إياهم، ودفعه الضرر عنهم ممن سواهم، وتسديده العلماء والحكام ـ وتقريره الأدلة والأحكام، أفضل ما يقال عنه من كنونه (استتاره) في الأمصار، وجَوْبه (قَطْعِه) الفيافي والأقطار، واجتماعه بعباد لا يعرف أحوال كثير منهم[2].

وبعد، فإننا نحذر من روايات وآراء تنسب لجماعة من أهل العلم تثبت حياة الخضر:

كالقرطبي في تفسيره، والنووي في شرحه لصحيح مسلم، والثعلبي في كتابه العرايس والشيخ أبو عمر ابن الصلاح، وجماهير الصوفية. . [3] .

ونقول: إن الرجال يعرفون بالحق ولا يعرف الحق بالرجال، وكل إنسان يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب الروضة الشريفة. .



فتى موسى:

ورد التعبير بفتى موسى عليه السلام في سورة الكهف، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [4] .

ولم يرد له اسم في القرآن المجيد، ولكن صرح به في حديث البخاري الذي ورد بشأن العبد الصالح حيث قال عليه الصلاة والسلام: «**فانطلق هو وفتاه يوشع بن نون**» كما

---

(١) وَهَلَ كضَرَبَ، اي توهم الناس خلاف الصواب حتى ذهب بعضهم إلى أن الساعة تقوم عند انقضاء مائة سنة، فبين ابن عمر المراد.

(٢) راجع البداية والنهاية لابن كثير (ج١ ص٣٢٥: ٣٣٦).

(٣) راجع: الجامع لاحكام القرآن للقرطبي (ج٦ ص٤١)، وصحيح مسلم بشرح النووي (ج١٥ ص١٣٥) .

(٤) الكهف: ٦٠ .

صرح به في رواية أخرجها الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «**إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس**».

فمن المعلوم أن بني إسرائيل لما رفضوا دخول بيت المقدس مع موسى عليه السلام ضرب الله عليهم التيه في الأرض، ومات هارون في التيه وتلاه موسى، فقام فتى موسى وهو يوشع بقيادة بني إسرائيل لدخول الأرض المقدسة، وانتهى حصاره لها إلى يوم الجمعة بعد العصر، فلما غربت الشمس أو كادت أن تغرب، ويدخل عليهم يوم السبت، وهو محرم عليهم العمل فيه، قال يوشع للشمس: أنت مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها عليّ.. فحبسها الله تعالى عليه حتى تمكن من الفتح..

وقد تغنى بذلك أمير الشعراء أحمد شوقي في قصيدته «توت عنخ آمون» :

قفي - يا أخت يوشع - خبرينا ... أحاديث القرون الغابرينا

وقُصّي من مصارعهم علينا ... ومن دُوَلاتهم(١) ما تعلمينا

فاتفاق الروايات الإسلامية على أن يوشع فتى موسى، وأنه قائد بني إسرائيل لدخول الأرض المقدسة.. أما أنه نبي فليس عندنا نص يصرح بذلك، وإن كان اليهود والنصارى متفقين على نبوته..

وقد ربط البعض بين يوشع بن نون وقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ (٢) .

وفسر النبي من بعد موسى بأنه يوشع بن نون، وهو تفسير بعيد لا سند له، لأن قصة الآية الكريمة كانت في زمن الملك طالوت الذي عاصره داود عليه السلام، وقاتل تحت إمرته قال تعالى: ﴿**وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ**﴾ (٣) .

وقد ذكر الإمام الرازي أن المقصود من هذه الآيات القرآنية هو الحث على الجهاد والترغيب فيه ، وقال: لا شك أن المقصود الذي ذكرناه حاصل، سواء علمنا أن النبي مَنْ كان مِنْ أولئك، وأن أولئك الملأ من كانوا، أو لم نعلم شيئًا من ذلك، لأن المقصود هو الترغيب في باب الجهاد، وذلك لا يختلف.

وإنما يعلم مَنْ ذلك النبي، ومَنْ ذلك الملأ، بالخبر المتواتر وهو مفقود، وأما خبر الواحد فإنه لا يفيد إلا الظن.

---

(١) البقرة: ٢٤٦ .

(٢) الدولات: ما يتداول أي يحدث مرة بعد مرة.

(٣) البقرة: ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

ومنهم من قال: إنه يوشع بن نون بن افرايم بن يوسف، والدليل عليه قوله تعالى «من بعد موسى» وهذا ضعيف، لأن قوله «من بعد موسى» كما يحتمل الاتصال[١] يحتمل الحصول من بعد زمان. . ومنهم من قال: كان اسم ذلك النبي أشمويل من بني هارون، واسمه بالعربية: إسماعيل، وهو قول الأكثرين.

وقال السدي: هو شمعون، سمته أمه بذلك، لأنها دعت الله تعالى أن يرزقها ولداً فاستجاب الله تعالى دعاءها، فسمته شمعون، يعني سمع دعاءها فيه، والسين تصير شينًا بالعبرانية، من ولد لاوي بن يعقوب عليه السلام [٢].

وفي كتب العهد القديم سمى ذلك النبي «صموئيل». .

وحيث سكت القرآن عن إيضاح الاسم وجب أن نسكت، ونتمثل الحديث الشريف الذي آخرجه البخاري: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم .. الآية**».

* * *

عزير

ورد اسم عزير في سورة التوبة، في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [٣].

وقيل في شبهة بنوته لله تعالى - في زعمهم - أن بختنصر والعمالقة حين قضوا على دولة بني إسرائيل وشردوهم، وقتلوا علماءهم وسبوا كبارهم، ضاعت التوراة ولم يبق إلا عزير وهو من أعلم الناس بالتوراة، فأملاها من حفظه، فلما تحسن الوضع الإسرائيلي وعاد النشاط اليهودي استخرجوا نسخًا من التوراة كانوا أودعوها الجبال، وقابلوها بما أملاه عزير فجدوا تطابقًا بين المنسوخ والمحفوظ فازدادوا تعلقًا بعزير واعتقدوا بنوته لله تعالى . . !!

ويرى عبد الله بن سلام أحد أحبار اليهود الذين أسلموا أن عزيرًا هو العبد الذي أماته الله تعالى مائة عام ثم بعثه، والمشار إليه في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٤].

---

(١) أي عقب موسى مباشرة.

(٢) التفسير الكبير للإمام الرازي (ج٦ ص١٨٣).

(٣) التوبة: ٣٠.

(٤) البقرة: ٢٥٩.

واختلف في نبوة عزير فيرى بعضهم أنه عبد صالح حكيم، وذكر الإمام ابن كثير أن المشهور أن عزيرًا نبي من أنبياء بني إسرائيل وأنه كان فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى . .

وروى ابن عساكر وغيره أن عزيرًا سأل عن القدر وأكثر المناجاة فيه فمحا الله اسمه من الأنبياء . .

وكل هذه روايات ضعيفة ومنكرة ومنقطعة لا يثبت بها شيء، ونكتفي بحديث القرآن المجيد الذي لم يصف عزيرًا بالنبوة وبرأه الله من مقالة اليهود في بنوته لله تعالى(١) .

لقمان:

في القرآن المجيد سورة تحمل اسم لقمان، تصفه بالحكمة، وتبين منهجه في التربية وتوضح وصاياه الأخلاقية والاجتماعية.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (٢) .

وتعددت الأقوال في موطن لقمان وزمانه، وقيل:

- إنه كان من أهل أيلة وكان قاضيًا زمن داود عليه السلام.
- إنه كان عبدًا حبشيًا نجارًا أو خياطًا.
- إنه كان من سودان مصر يرعى الغنم.

ووصف بأنه أسود قصير، أفطس الأنف، غليظ الشفتين.

ويروى عن عكرمة أنه قال: كان لقمان نبيًا . .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: خير الله لقمان بين النبوة والحكمة، فاختار الحكمة . .

وقال وهب: قرأت في حكمة لقمان نحوًا من عشرة آلاف باب، ولم يسمع الناس كلامًا أحسن منه، فرأيت الناس قد أدخلوه في كلامهم، واستعانوا به في خطبهم ورسائلهم، ووصلوا به بلاغاتهم . .

وهذه الروايات نتوقف فيها ولا نأخذ منها عقائد ونكتفي بما قصه القرآن من حكمة لقمان . .

فالروايات ضعيفة وكون لقمان عبدًا مسه الرق ينافي كونه نبيًا لأن الرسل تبعث في نسب قومها . . » (٣) .

---

(١) راجع الروايات وأقوال العلماء في كتاب «المعارف» لابن قتيبة (ص ٣٠)، وكتاب « البداية والنهاية» لابن كثير (ج٢ ص٤٣) .

(٢) لقمان: ١٢ ، ١٣ .

(٣) راجع : « البداية والنهاية» لابن كثير (ج٢ ص١٢٣) ، و«المعارف» لابن قتية (ص ٣٢).

تبع:

ورد اسم تبع في سورة الدخان في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (١).

وتكرر في سورة ق في قوله جل شأنه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ (٢).

والملاحظ أن الهلاك انصب على قوم تبع ولم يرد اسمه في معرض الذم أو الهلاك، وجاء على نسق قوم نوح، وإخوان لوط..

وأشار المفسرون إلى أن تبعًا هذا من قبيلة حمير القحطانية اليمنية المشار إليهم في سورة سبأ في قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ (٣).

وتعددت الأقوال في تبع المشار إليه في القرآن المجيد وملخصها:

إنه ملك عظيم، حكم الشام والحجاز واليمن، قبيل بعثة المسيح عليه السلام، تهود ودعا الناس إلى اليهودية، واحترم الكعبة وطاف بها وكساها الحرير، وعمر طويلاً حتى قيل إنه حكم قومه ثلاثمائة سنة وستة وعشرين سنة..

وسيقت روايات ـ الله أعلم بها ـ تنهى عن سب تبع لأن الله لم يذمه وإنما ذم قومه، وجاء في بعضها «ما أدري تبع كان نبيًا أم غير نبي ؟!».

وينسب إلى تبع أبيات شعرية يعبر فيها عن إيمانه بالرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل مبعثه بسبعمائة سنة، قال فيها:

شهدت على أحمد أنه	رسول من الله باري النسم
فلو مد عمري إلى عصره	لكنت وزيرًا له وابن عم
وألزم طاعته كل من	على الأرض من عرب أو عجم
وجاهدت بالسيف أعداءه	وفرجت عن صدره كل غم(٤)

---

(١) الدخان: ٣٧.

(٢) ق: ١٢ ـ ١٤.

(٣) سبأ: ١٥ ـ ١٧.

(٤) راجع: تفسير القرآن العظيم. لابن كثير (ج٣ ص٥٣٠، ج٤ ص١٤٣، ص ٢٢٣).

المبحث الثاني:

الـــزمـــان والمــكــان في تــاريـــخ الأنبيـــاء

آدم عليه السلام

نحاول هنا أن نرتب الأنبياء المجمع على نبوتهم ترتيبًا زمنيًا، ومعرفة مواطن بعثتهم من خلال النصوص الشرعية، والوقائع التاريخية..

فآدم أبو البشر، به بدأت الإنسانية، ومنه تفرقت شعوبًا وقبائل، وهو أول من تلقى الوحي وكلمات الله، وأول من دعا إلى الله تعالى..

قال جل شأنه: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [1].

وجاء في حديث الشفاعة - كما رواه مسلم - : **«فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك..»**.

لقد خلق آدم عليه السلام من طينة مأخوذة من جميع أركان الأرض، حتى يحوي أوصافها، وتحمل ذريته ما يلائم طبيعة هذه الأرض.

وفي حديث رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان، وقال الترمذي: حسن صحيح، قال عليه الصلاة والسلام: **«إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود، وبين ذلك، والسهل والحَزْن وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك..»**.

وكان لآدم شكل خاص يفوق ما هو معهود اليوم في الشكل العام للإنسان. ففي صحيح البخاري، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : **«خلق الله آدم وطوله ستون ذراعًا، ثم قال: اذهب فسلم على أولئك من الملائكة، فاستمع ما يحيونك، تحيتُك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن»**.

- ولقد تعددت الآراء في مكان هبوط آدم ودعوته، وساق الإمام ابن كثير أقوالاً لأهل العلم منها:

---

(١) البقرة: ٣٧ ـ ٣٩.

- عن ابن عباس قال: أهبط آدم عليه السلام إلى أرض يقال لها: دحنا، بين مكة والطائف.

- عن الحسن قال: أهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدستميسان من البصرة على أميال، وأهبطت الحية بأصبهان.

- قال السدي: نزل آدم بالهند ونزل معه بالحجر الأسود، وبقبضة من ورق الجنة فبثه في الهند فنبتت شجرة الطيب هناك.

- عن ابن عمر قال: أهبط آدم بالصفا، وحواء بالمروة [١].

وهذه كلها أقوال لا يعتمد عليها ولا يجوز التمسك بها، وهي عارية عن الصحة، ونكتفي بقول الله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [٢].

والتعبير بالجمع في قوله «اهبطوا» لكون الخطاب موجهًا لآدم وحواء وإبليس، وجاء التعبير بالمثنى في آية أخرى كقوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [٣].

لأن حواء تبع لآدم، فيكون الخطاب موجهًا لآدم وإبليس معًا.

والعداوة بين آدم وإبليس معلومة شرعًا، وهي مستمرة في ذريتهما إلى يوم الدين، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٤].

والأرض هي المستقر لبني الإنسان، يعيشون عليها الأجل الذي حدده الله لهم، حتى تحين لحظة الموت، فينتقلون من ظاهرها إلى باطنها، ويستمرون في قبورهم إلى لحظة البعث التي يخرجون بعدها إلى لقاء الله، للحساب والجزاء الأبدي..

* * *

(١) البداية والنهاية. لابن كثير (ج ١ ص٨٠).
(٢) الأعراف: ٢٤ ـ ٢٥.
(٣) طه: ١٢٣.
(٤) الأعراف: ٢٧.

نوح عليه السلام

وصف نوح عليه السلام في حديث الشفاعة المشهور بأنه أول الرسل إلى الأرض، وفسر العلماء ذلك بأنه أول رسول بعد الطوفان، أو أول رسول إلى قوم كافرين، فإن الرسل قبله بعثوا إلى مؤمنين، ولم يكن الفساد والاختلاف قد انتشر في الأرض، أو أول رسول جاء بشريعة جديدة، فإن الرسل قبله كانوا على شريعة آدم.

- وفي كيفية اختلاف البشر على عهد نوح عليه السلام ساق البخاري تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (١).

قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما وَدٌّ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سُواعٌ فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غُطيف بالجَرْف عند سبأ، وأما يعوقُ فكانت لهَمْدانَ، وأما نسرٌ فكانت لحميَر، لآل ذي الكَلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصِبُوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسَمُّوها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت».

- وفي تحديد الفترة الزمنية بين آدم ونوح عليهما السلام جاء حديث رواه ابن حبان في صحيحه - وهو على شرط مسلم ولم يخرجه - أن رجلاً قال: يا رسول الله، أنبي كان آدم؟ قال: «نعم، مكلَّم» قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: «عشرة قرون».

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام».

وإذا فسرنا القرن بمائة سنة، فإن العلم الحديث يتوقف في قبول هذه المدة الزمنية اليسيرة لنشأة الإنسان.

ويمكن القول بأن القرون العشرة كانت تحديدًا للفترة الزمنية التي ساد فيها الإيمان وانتشر الدين، والتزم الناس فيها بالحق.. أما فترات الكفر والنزاع والاختلاف فكانت أبعد مدى وأكثر عددًا..

وإذا فسرنا القرن بالجيل من الناس، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ (٢)، وقوله جل شأنه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا

(١) نوح: ٢٣. (٢) الإسراء: ١٧.

يرْجِعُونَ﴾ [١] . أي من الأجيال، فإن الفترة الزمنية بين آدم ونوح عليهما السلام تكون غير محدودة، فإن الناس قبل نوح كانوا يعمرون كثيرًا، ولم يكن نوح عليه السلام بدعًا من الأمر عندما عاش في قومه داعيًا إلى الله ألف سنة إلا خمسين عامًا. .

- وبعثة نوح عليه السلام كانت إلى أهل الأرض جميعًا عند جمهور العلماء، ولما جاء الطوفان استوت السفينة على الجودي، قيل بالجزيرة، وقيل: بالموصل، وقيل: هو جبل الطور [٢] .

ويرى بعض العلماء أن نوحًا أرسل إلى قومه خاصة وليس إلى أهل الأرض قاطبة، وأن قومه كانوا بالعراق. .

وقد أنكر ابن كثير هذا الرأي، واتهم قائليه بالغلطة والكفر والجهل والمكابرة والتكذيب لرب الأرض والسموات، وادعى الإجماع عند أهل الأديان، والتواتر عند الناس في سائر الأزمان على وقوع الطوفان، وأنه عم جميع البلاد ولم يبق الله أحدًا من الكفرة استجابة لدعوة نوح عليه السلام ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [٣] [٤] .



(١) يس: ٣١.
(٢) تفسير ابن كثير (ج٢ ص٤٤٦) .
(٣) نوح: ٢٦ .
(٤) راجع: البداية والنهاية (ج١ ص١١٨) .

هود عليه السلام

أرسل الله تعالى هودًا عليه السلام إلى قبيلة عاد وكانوا أقرب إلى زمن نوح عليه السلام بنص قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١).

وسكنت قبيلة عاد الأحقاف، بنص قوله تعالي: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾ (٢) .

والأحقاف جمع حِقْف وهو جبل من الرمل مستطيل فيه اعوجاج وانحناء، والأحقاف واد بين عمان وحضرموت، وهم عاد الأولى المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ (٣) .

وفي تعليل الوصف بالأولى قال الإمام الرازي:

قيل: بالأولى تميزت من قوم كانوا بمكة هم عاد الآخرة، وقيل: الأولى لبيان تقدمهم لا لتميزهم، تقول: زيد العالم جاءني، فتصفه، لا لتميزه ولكن لتبين علمه (٤) .

وبعد هلاك عاد لحق هود ومن آمن معه بمكة فلم يزالوا بها حتى ماتوا، وقيل: سكن هود بلاد حضرموت ودفن بها، وقيل: ذهب إلى فلسطين ودفن بها (٥) .

وقد انفرد القرآن بذكر قصة هود مع قومه، ولم يرد له ذكر في العهد القديم عند اليهود، وأفاض القرآن في الحديث عن عاد في أبدانهم وأموالهم وديارهم وعقائدهم، وحياتهم وهلاكهم، وجاءت سورة قرآنية باسم نبي الله هود عليه السلام، وسورة أخرى تحمل اسم موقع قومه وهي سورة الأحقاف، وتكررت القصة في سور كثيرة مثل الأعراف والمؤمنون والشعراء وفصلت والذاريات والنجم والقمر والحاقة. .

---

(١) الأعراف: ٦٩ . (٢) الأحقاف: ٢١ .

(٣) النجم: ٥٠ ـ ٥٢ . (٤) التفسير الكبير (ج٢٩ ص٢٤).

(٥) راجع : « المعارف » لابن قتيبة ص ١٨ ط. دار الكتب العلمية، و «قصص الأنبياء» للشيخ عبد الوهاب النجار «ص ٥٣ » .

وكان ختام القصص القرآني عن هود وقبيلة عاد في سورة الفجر، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ (١) .

ومعنى إرم: الأمة القديمة، يعني عادًا الأولى، والمراد بالعماد: المباني الفخمة والعجيبة التي أنشأوها في منطقتهم الجبلية، أو السلاح القوي الذي امتلكوه وتفوقوا به على أقرانهم، أو قوة أبدانهم، وطول قامتهم التي تميزوا بها على أهل زمانهم.

واسم الموصول والضمير في قوله «التي لم يخلق مثلها» يعودان على العماد أو على القبيلة.. والمراد بالبلاد: عالم زمانهم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (٢) .

* * *

(١) الفجر: ٦ ـ ٨ .

(٢) فصلت: ١٥ .

صالح عليه السلام

بعث الله تعالى نبيه صالحًا عليه السلام إلى قبيلة ثمود التي سكنت الحِجْر وهو موقع بين المدينة والشام عند وادي القرى بالقرب من خليج العقبة.

وجاءت سورة تحمل اسم الحجر، قال الله تعالى فيها: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١) .

وقد اقترنت قبيلة ثمود بقبيلة عاد في مواطن عدة من القرآن العظيم، وذكَّر صالح عليه السلام قومه بما حدث لقبيلة عاد، فقال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(٢) . وذلك لأن كلتا القبيلتين من العرب العاربة الذين كانوا قبل إبراهيم عليه السلام . . فهود وصالح نبيان عربيان.

هذا وقد مرَّ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ديار ثمود ومساكنهم، وهو ذاهب إلى غزوة تبوك، سنة تسع من الهجرة، فقال لأصحابه: «**لا تشربوا من مائها، ولا تتوضئوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئًا، ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له**» .

وفي صحيح البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لأصحابه وهو بالحِجْر: «**لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم**» .

وفي رواية نقلها ابن هشام عن الزهري أنه قال: لما مر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحجر سجَّى ثوبه على وجهه، واستحث راحلته ثم قال: «**لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون خوفًا أن يصيبكم مثل ما أصابهم**» .

* * *

---

(١) الحجر: ٨٠ ـ ٨٤ .
(٢) الأعراف: ٧٤ .

إبراهيم عليه السلام

تمثل بعثة إبراهيم عليه السلام مرحلة جديدة من النبوة، فهو الجد الأعلى للعرب واليهود بنسب ولديه إسماعيل وإسحق.

وكان إبراهيم بعد نوح، ومن نسله، وعلى ملته، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ (١)، أي من شيعة نوح عليه السلام، وشيعة الرجل أهله وأنصاره . .

وقد ولد إبراهيم في أرض بابل بالعراق، أرض الكلدانيين، في بيئة وثنية تصنع الأصنام لتعبدها، وتقيم الأوثان لتؤلهها.

وجاهد إبراهيم هؤلاء الوثنين جهادًا كبيرًا، ووقف مواقف حاسمة مع أبيه وقومه . . قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ۝ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ۝ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ۝ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ۝ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۝ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ (٢) .

وأعلن أبوه الحرب عليه، وقدمه قومه للمحاكمة، وأصدروا حكمًا بإعدامه حرقًا، وأنقذه الله برحمته، قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ۝ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (٣) .

خرج إبراهيم بعد هذه المعجزة القاهرة مهاجرًا إلى فلسطين أرض الكنعانيين، وكانوا صابئة، يعبدون الكواكب والنجوم، فدعاهم إلى الله، ونهاهم عن الشرك وشرح لهم دلائل التوحيد الخالص.

وساق القرآن المجيد أسلوب إبراهيم في مجادلة هؤلاء حين قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۝ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۝ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۝ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ

---

(١) الصافات: ٨٣ . (٢) الأنبياء: ٥١ ـ ٥٨ .

(٣) الأنبياء: ٦٨ ـ ٧١ .

(٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [(١)] .

وظل إبراهيم في هذه الأرض المقدسة إلى أن جدت أسباب دفعت به إلى الهجرة، فقد حدث جدب وقحط أهلك الحرث والنسل، فانتقل إلى مصر، وأقام بها فترة زمنية في عصر الهكسوس..

وتعد هذه الفترة ذات أثر عميق في تاريخ الرسالات الإلهية، فقد خرج إبراهيم من مصر ومعه هاجر القبطية التي ولدت له إسماعيل، ذلك الغلام الحليم الذي تناسل منه العرب المستعربة، ثم بشره الله بإسحق من زوجه سارة، ذلك الغلام العليم الذي تناسل منه بنو إسرائيل..

وعاد إبراهيم عليه السلام إلى فلسطين، وكانت له رحلة بعد ذلك أو رحلات إلى موضع مكة المكرمة حيث ترك إسماعيل وأمه هاجر في واد غير ذي زرع لحكمة إلهية بالغة تمثلت في رفع قواعد البيت الحرام والتمهيد لبعثة النبي الخاتم سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ..

وفي صحيح الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كَذَبَات، ثنتين منهن في ذات الله، قوله ﴿إني سقيم﴾، وقوله ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾» وقال: «بينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن ههنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأتى سارة فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك.

فأرسل إليها فأُتِيَ بها، وقام إبراهيم يصلي، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأخذ حتى ركض برجله، فقال: ادعي الله ولا أضرك، فدعت الله فأطلق، ثم تناولها الثانية، فأخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق، فدعا بعض حجبته، فقال: إنك لم تأتني بإنسان، إنما أتيتني بشيطان، فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي، فأومأ بيده: مَهْيَمْ، قالت: رد الله كيد الكافر في نحره، وأخدم هاجر» .

قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء.

ولنا تعليقات على هذا الحديث:

١ ـ الكذب الذي وصف به إبراهيم عليه السلام هو من باب المعاريض، وهي أن

---

(١) الأنعام: ٧٥ ـ ٧٩ .

يقصد المتكلم معنى ويفهم منه المخاطب معنى آخر، وهي من المباح شرعًا عند الضرورة، ولو كان كذبًا محضًا فهو جائز أيضًا لدفع الظالمين.

٢ ـ وقول إبراهيم «إني سقيم» عندما دعاه قومه للخروج يوم عيدهم، لم يقصد به المرض البدني والعضوي، وإنما قصد به الهم النفسي والحزن الشديد على ما هم عليه من ضلالة.

٣ ـ وقول إبراهيم «هذا ربي» للكوكب والقمر والشمس كان على طريق الاحتجاج على قومه تنبيهًا على طرق الاستدلال، فإن الذي يتغير لا يصلح للربوبية.

٤ ـ وقول إبراهيم «بل فعله كبيرهم هذا» من باب التهكم بعبدة الأصنام الذين يعبدون أصنامًا لا تسمع ولا تبصر ولا تتكلم.

٥ ـ لم يفرط إبراهيم في زوجه ساره، وإنما حسن ظنه بالله وصدق توكله عليه ويقينه بحفظ الله دفعه إلى أن يقوم للصلاة ويدع زوجه لأمر الله. . وقد صدق الله وعده فشلت يد الجبار ولم يستطع أن ينال سارة بسوء وتوسل إليها أن تدعو الله له.

٦ ـ قول أبي هريرة «تلك أمكم يا بني ماء السماء» خطاب للعرب لأنهم أصحاب رعي، يتعقبون ما ينبت بماء المطر، أو لأن ماء زمزم هي التي جمعت الناس في هذا المكان بعدما تفجرت على يد إسماعيل وأمه هاجر. .

٧ ـ ذكر الإمام ابن حجر مجموعة فوائد تؤخذ من هذا الحديث هي:

- مشروعية أخوة الإسلام.
- وإباحة المعاريض.
- والرخصة في الانقياد للظالم والغاصب.
- وقبول صلة الملك الظالم، وقبول هدية المشرك.
- وإجابة الدعاء بإخلاص النية.
- وكفاية الرب لمن أخلص في الدعاء بعمله الصالح.
- وفيه ابتلاء الصالحين لرفع درجاتهم.
- وفيه أن من نابه أمر مهم من الكرب ينبغي له أن يفزع إلى الصلاة. . »[١]

* * *

(١) فتح الباري (ج٦ ص٣٩٤).

لوط عليه السلام

يذكر المؤرخون أن لوطًا عليه السلام هو ابن أخ لإبراهيم الخليل، نشأ في بلاد العراق، فلما بعث الله عمه إبراهيم عليه السلام آمن به وصدقه ولازمه في حله وترحاله، قال تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١).

ومرجع الضمير في قوله «إني مهاجر» إما إلى إبراهيم أي أنه لما يئس من إيمان قومه ولم يستجب له أحد إلا لوطًا أخبره أنه سيخرج من هذه القرية الظالم أهلها ويذهب إلى مكان آخر.

وإما أن الضمير يعود إلى لوط، أي أن لوطًا اختار الإيمان وآثر الهجرة مع عمه معتزًا بدينه، مضحيًا في سبيله متوكلاً على الله . .

وأيا ما كان فقد هاجر لوط مع إبراهيم إلى أرض الشام في فلسطين، قال الله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢).

ويذكر المؤرخون أنه خلال إقامتهما بالشام أصاب البلاد قحط وجدب فخرجا منها إلى أرض مصر، فمكثا مدة تكاثرت فيها ثروتهما ثم آثرا العودة إلى فلسطين، وخلال رحلة العودة نبئ لوط وأرسله الله إلى قرية سدوم بحوض الأردن، وكان أهل هذه القرية - كما يقول الإمام ابن كثير -:

من أفجر الناس وأكفرهم وأسوئهم طوية، وأرداهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون، ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكران من العالمين، وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين، فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش المنكرات، والأفاعيل المستقبحات، فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم، واستمروا على فجورهم وكفرانهم، فأحل الله بهم من البأس الذي لا يرد ما لم يكن في خلدهم وحسبانهم، وجعلهم مثلة في العالمين، وعبرة يتعظ بها الألباء من العالمين.(٣).

ولهذا ذكر الله تعالى قصتهم في غير ما موضع من كتابه المبين، فقال تعالى: ﴿وَلُوطًا

---

(١) العنكبوت: ٢٦ . (٢) الأنبياء: ٧١ .

(٣) البداية والنهاية (ج١ ص ١٧٦) .

إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴿٨٠﴾ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ﴿٨١﴾ وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴿٨٢﴾ فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴿٨٣﴾ وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ (١) .

- ويشير القرآن المجيد إلي أن ملائكة الله مروا على إبراهيم عليه السلام قبل قدومهم إلى قرية لوط، وأخبروه بأمرين:

١ - بغلام عليم يولد له من زوجه العاقر سارة.

٢ - بنبأ عذاب الاستئصال الذي سيحل بقوم لوط.

وتقبل إبراهيم عليه السلام بشرى الأمر الأول وأشفق على ابن أخيه من الأمر الثاني، وجادل الملائكة في شأنه، قال تعالى: ﴿ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين ﴿٣١﴾ قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ (٢) .

ووصل الملائكة إلى لوط، وضاق بهم ذرعًا لأنهم كانوا على هيئة شباب حسان، وتجمهر القوم أمام بيت لوط عليه السلام، وأرادوا اغتصاب هؤلاء الشباب، ووقف لوط مبهوتًا، ووقع في شدة شديدة لأنه حسب الملائكة ضيوفًا من البشر، وحدثت مجادلات ومنازعات، ومحاولات لاقتحام البيت، ثم كشف الملائكة عن حقيقة موقفهم وطبيعتهم، وجاء التأكيد الإلهي بنصرة لوط وهلاك قومه، وأمر الملائكة لوطًا بالهجرة ومعه ابنتاه، وخانته زوجه بعدم الإيمان برسالته ومالأت قومها عليه فأصابها ما أصابهم..

قال الله تعالى: ﴿ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب ﴿٧٧﴾ وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد ﴿٧٨﴾ قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ﴿٧٩﴾ قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ﴿٨٠﴾ قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾ (٣) .

---

(١) الأعراف: ٨٠ - ٨٤ .

(٢) العنكبوت: ٣١ - ٣٢.

(٣) هود: ٧٧ - ٨١ .

وقوله تعالى: «هؤلاء بناتي هن أطهر لكم» مراد به إرشادهم إلى العلاقة الزوجية المشروعة، والطهارة الأسرية التي يجب الحفاظ عليها، لأن هذه هي الطهارة الحقيقية، أما الزنا أو اللواط فلا طهارة فيه..

ومعلوم أن كل نبي هو أب لأمته..

وقوله تعالى: «إلا امرأته» استثناء من السير أو الالتفات:

فعلى الأول، لا يسير لوط بزوجه، بل عليه أن يدعها لتلقى مصير القوم الذين مالأتهم وساندتهم.

وعلى الثاني، أن أهل لوط سيستجيبون للنهي الإلهي في عدم الالتفات خلفهم إلا زوجه فإنها ستلتفت، وحينئذ ينالها العذاب الذي حاق بقوم لوط، وتكون مع الهالكين.



وإلى هنا يحسن أن نقول: إن نبوة لوط عليه السلام كانت عقب نبوة إبراهيم الخليل لأن لوطًا آمن بإبراهيم بنص القرآن الكريم، وكانت قبل نبوة إسماعيل وإسحق لأن كليهما ولدان لإبراهيم رزق بهما على كبر، وبعد أن منحه الله النبوة واصطفاه، وبعد هجرته إلى مصر وامتلاكه لهاجر القبطية..



إسماعيل عليه السلام

ولد إسماعيل في الأرض المباركة من فلسطين، وأثناء فترة الرضاعة حمله أبوه إبراهيم بأمر الله، ولغيرة سارة من أمه هاجر إلى واد غير ذي زرع في موضع مكة المكرمة.. وتكفل الله تعالى بالرضيع وأمه وفجر لهما زمزم، وجمع الناس حولهم، وشب إسماعيل، ولما بلغ السعي امتحنه الله برؤيا أبيه أنه يذبحه، واستسلما معًا لأمر الله، ثم جاء الفداء العظيم من الله لذلك الوليد.. قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [(١)] .

وعاود إسماعيل مسيرة حياته ورفع القواعد من البيت الحرام مع أبيه إبراهيم وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [(٢)] .

وتحمل إسماعيل عليه السلام أمانة الدعوة إلى الله وبعثه الله رسولاً إلى العرب الذين تقاطروا حول البيت وعمروا الأرض في مكة وأقاموا بها وامتد نسلهم إلى اليمن..

ووصفه القرآن بصدق الوعد، والرسالة والنبوة، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في خاصة أهله والناس حوله حتى حظي بالرضا الكامل من الله عز وجل..

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [(٣)] .

وفي تفاصيل الأحداث التي مرَّ بها إسماعيل في نشأته وحياته ساق البخاري في صحيحه حديثًا مطولاً وحديثًا مختصرًا كلاهما عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال - كما هو في المختصر -: لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان، خرج بإسماعيل، ومعهم شَنَّة فيها ماء، فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشَّنَّة[(٤)] فيَدِرُّ لبنها على صبيها، حتى قدم مكة

---

(١) الصافات: ١٠١ ـ ١٠٧ .
(٢) البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩ .
(٣) مريم: ٥٤ ـ ٥٥ .
(٤) الشنة: القربة الخلَق القديمة.

فوضعها تحت دوحة [١]، ثم رجع إبراهيم إلى أهله [٢]، فاتبعته أم إسماعيل حتى لما بلغوا كداء[٣] نادته من ورائه: يا إبراهيم، إلى من تتركنا؟ قال: إلى الله، قالت: رضيت بالله.

قال: فرجعت فجعلت تشرب من الشنة ويَدِرُ لبنها على صبيها، حتى لما فني الماء قالت: لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحدًا، قال: فذهبت فصعدت الصفا فنظرت هل تحس أحدًا، فلم تحسَّ أحدًا، فلما بلغت الوادي سعت وأتت المروة، ففعلت ذلك أشواطًا، ثم قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل - تعني الصبي -، فذهبت فنظرت فإذا هو على حاله، كأنه ينشغ[٤] للموت، فلم تُقِرَّها نفسها، فقالت: لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحدًا، فذهبت فصعِدت الصفا فنظرت ونظرت فلم تحس أحدًا، حتى أتمت سبعًا، ثم قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل، فإذا هي بصوت، فقالت: أغث إن كان عندك خير، فإذا جبريل، قال: فقال بعقبه هكذا، وغمز عقبه على الأرض، قال: فانبثق الماء، فدَهَشَت [٥] أم إسماعيل، فجعلت تخفر [٦].

قال: فقال أبو القاسم: «لو تركته كان الماء ظاهرًا»[٧]، قال: فجعلت تشرب من الماء ويدر لبنها على صبيها، قال: فمر ناس من جرهم [٨] ببطن الوادي، فإذا هم بطير، كأنهم أنكروا ذاك، وقالوا: ما يكون الطير إلا على ماء، فبعثوا رسولهم فنظر فإذا هم بالماء، فأتاهم فأخبرهم، فأتوا إليها فقالوا: يا أم إسماعيل، أتأذنين لنا أن نكون معك أو نسكن معك؟

فبلغ ابنها فنكح فيهم امرأة، قال: ثم إنه بدا لإبراهيم فقال لأهله: إني مُطَّلِع تركتي، قال: فجاء فسلم، فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: ذهب يصيد، قال: قولي له إذا جاء

---

(١) الدوحة: الشجرة الكبيرة. (٢) المراد زوجه سارة.

(٣) كداء بالفتح: وضبطهم بعضهم بالضم والقصر «كدى».

(٤) ينشغ: يشهق ويعلو صوته وينخفض.

(٥) دهشت بفتح الدال أو ضمها تحيرت وتعجبت.

(٦) تخفر أي تحبس الماء وتجعل له حوضًا خشية تسربه.

(٧) أي جاريًا على وجه الأرض كالنهر.

(٨) جرهم: قبيلة عربية كانت بواد قريب من مكة.

غيِّر عتبة بابك [١] ، فلما جاء أخبـرته، قال: أنتِ ذاك، فاذهبي إلى أهلك، قال: ثم إنه بدا لإبراهيـم فقـال لأهله: إني مُطَّلِع تركتي، قـال: فجاء فـقال: أين إسـماعيل؟ فـقالت امرأته: ذهب يصـيد، فقالت: ألا تنزل فتطعم وتشـرب؟ فقال: وما طعامكم وما شرابكم؟ قالت: طعـامنا اللحم، وشرابنا الماء، قال: الـلهم بارك لهم في طعامهم وشـرابهم، قال: فقال أبو القاسم ـ صلى الله عليه وسـلم ـ : «بركةٌ بدعوة إبراهيم»[٢] .

قال: ثم إنه بدا لإبراهيم فقـال لأهله: إني مطلع تركتي، فجاء فوافق إسـماعيل من وراء زمزم يصلح نَبْلاً له[٣] ، فقال: يا إسـماعيل، إن ربك أمرني أن أبني له بيـتًا، قال: أطع ربك، قال: إنه أمـرني أن تعينـني عليه، قـال: إذن أفعل - أو كمـا قال، قال: فقـاما فجعل إبراهـيم يبـني وإسماعيل يناوله الحـجارة ويقولان: «ربنا تقبل منا إنك أنت الـسميع العليـم» .



---

(١) لأنها لم تحسن استقباله، ولأنها ضجرت بالحياة مع إسماعيل، وشكت إليه ضيق الحياة وبؤس المعيشة كما جاء في الرواية المطولة.

(٢) فيه حذف تقديره: في طعام أهل مكة وشرابهم بركة بدعوة إبراهيم.

(٣) النبل: بفتح وسكون السهم قبل أن يركب فيه نصله وريشه.

إسحق عليه السلام

إسحق هو الغلام العليم الذي بشر به إبراهيم الخليل من زوجه سارة في سن اليأس أو الكبر، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (١) .

وجاءت هذه البشرى عقب قصة الذبيح إسماعيل عليه السلام مكافأة إلهية لإبراهيم عليه السلام على صبره واستسلامه لحكم الله وحكمته، ولم تكن مجرد بشرى بوليد وإنما كانت بشرى بوليد يصير نبيًا ويتحمل أمانة الدعوة إلى الله عز وجل. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٢) .

بل إن هذه البشرى قدمت لإبراهيم مضاعفة تؤكد له استمرار عقبه ونسله فصاحبتها البشرى بيعقوب ولدًا لإسحق وحفيدًا لإبراهيم. قال تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ (٣) .

وتحمل إسحق النبوة والرسالة خلفًا لوالده إبراهيم في مكان إقامته من أرض فلسطين، وجاء التأكيد على نبوة إسحق في أكثر من آية قرآنية، منها قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٤) .

وهنا نقطة يحسن أن نشير إليها وهي أن اليهود يعتقدون أن الذبيح هو إسحق، وسار بعض العلماء من المسلمين على دربهم، وهو قول باطل لا سند له من نصوص القرآن والسنة، ونؤكد أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام لأدلة كثيرة منها:

١ ـ إن البشرى بالغلام العليم إسحق كانت عقب قصة الذبيح إسماعيل ذلك الغلام الحليم كما ورد في سورة الصافات.

٢ ـ إن الذبيح كان هو الغلام البكر الوحيد لإبراهيم حتى يعظم الابتلاء وتؤتي القصة

---

(١) الذاريات: ٢٤ ـ ٣٠ .

(٢) الصافات: ١٠٦ ـ ١١٢ .

(٣) هود: ٧١ .

(٤) البقرة: ١٣٦ .

عبرتها، والثابت دينيًا وتاريخيًا أن إسماعيل هو الغلام البكر لإبراهيم من هاجر المصرية في الوقت الذي كانت فيه سارة عاقرًا عجوزًا..

٣ ـ إن مسرح الذبح والفداء كان بمكة المكرمة والمعروف أن إسحق ولد وعاش في فلسطين ولم يذهب إلى مكة وأن الذي نشأ في مكة واستقر فيها هو إسماعيل وأمه هاجر بعد أن تركهما إبراهيم لشدة غيرة سارة ولحكمة يعلمها الله بواد غير ذي زرع عند مكان البيت الحرام بمكة المكرمة.

٤ ـ إن الله تعالى بشر إبراهيم بإسحق ووعده أن يعيش حتى ينجب ولدًا هو يعقوب، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾.

ووعد الله حق فكيف يؤمر إبراهيم بعد ذلك بذبح إسحق وهو طفل صغير لم يولد له يعقوب الموعود به؟

فتعين أن يكون إسماعيل هو الذبيح حتى لا يقع خلف لوعد الله عز وجل.

٥ ـ إن إسماعيل هو جد العرب المستعربة، وإسحق هو جد بني إسرائيل، وقد ورد في حديث رواه الحاكم أن أعرابيًا قال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: يابن الذبيحين، فضحك».

ويعني بالذبيحين إسماعيل وعبد الله بن عبد المطلب، وذلك أن عبد المطلب عند حفر زمزم نذر إن سهل الله له أمرها ورزقه عزة من الولد يمنعونه ويكونون حوله ليذبحن أحدهم فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وكبراء قومه وأشاروا عليه بالفداء، ففداه بمائة من الإبل..



يعقوب عليه السلام

يعقوب عليه السلام هو حفيد إبراهيم الخليل عليه السلام، بشر به مع ولده إسحق عليه السلام مكافأة لإبراهيم على وفائه لرؤياه أن يذبح ولده إسماعيل عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ (١).

وقال جل شأنه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ (٢).

ومعنى قوله «من وراء إسحق» أي من نسله، ومعنى قوله «نافلة» زيادة على رغبتها وفضلاً من الله مضاعفًا لأنه حقق أملها في ولد منها وأعطاها حفيدًا لها، وحظي يعقوب برعاية جده وحفظ وصاياه لأبنائه إسماعيل وإسحق بأن يحسنوا الولاء لدين الله وشرعه.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (٣).

والضمير في قوله «بها» يعود على ملة الإسلام المذكورة في قوله سبحانه ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤).

أو يعود على الكلمة الطيبة المفهومة من قوله تعالى: «قال أسلمت لرب العالمين»، والتي أشار إليها القرآن في موضع آخر في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٥).

ويعقوب ممن أوصاهم إبراهيم عليه السلام بملة الإسلام وكلمة التوحيد، وهناك قراءة بنصب لفظ «يعقوب» عطفًا على بنيه في الآية الكريمة، ومما يؤكد حضور يعقوب وصية جده أنه وعي هذه الوصية وأعادها في لحظة احتضاره وذكر بها ولده .. قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٦).

---

(١) هود: ٧١ . (٢) الأنبياء: ٧٢ .
(٣) البقرة: ١٣٢ . (٤) البقرة: ١٣٠ ـ ١٣١ .
(٥) الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨ . (٦) البقرة: ١٣٣ .

- ويعقوب هو إسرائيل بمعنى عبد الله أو صفوة الله، وجاء وصفه بذلك في قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١) .

لقد امتنع يعقوب من طعام يشتهيه وفاء لنذره، فحرّم على نفسه لحوم الإبل وألبانها، ولم يكن ذلك التحريم تشريعًا عامًا، وظل الطعام كله مباحًا لبني إسرائيل حتى قست قلوبهم وابتلاهم الله بتحريم بعض الطيبات على لسان موسى عليه السلام . .

قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٢) .

فشمل التحريم كل ذي ظفر من البهائم والطيور، وهو ما لم يكن مشقوق الأصابع كالإبل والنعام والأوز والبط . .

وحرم عليهم شحوم البقر والغنم إلا ما تعلق بالظهر أو احتوت عليه المصارين أو اختلط بعظم . .

وظل يعقوب في موطنه بأرض فلسطين، وتعلم صناعة البناء من جده إبراهيم وعمه إسماعيل فأقام بأرض الشام مسجدًا على غرار البيت الحرام بمكة المكرمة هو المسجد الأقصى . .

وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: «**المسجد الحرام**» قلت: ثم أي؟ قال: «**المسجد الأقصى**» قلت: كم بينهما؟ قال: «**أربعون سنة**» .

ومارس يعقوب عليه السلام الدعوة إلى الله، وسعد باصطفاء الله له ولأسرته، ودعا الله أن يبارك له في نسله، وأسرها إلى ولده يوسف عليه السلام عندما رأى هذا الوليد أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر ساجدين له، فقال له أبوه يعقوب: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٣) .

---

(١) آل عمران: ٩٣ . (٢) الأنعام: ١٤٦ .
(٣) يوسف: ٦ .

وتدور الأيام وتتجدد أحداث وتطرأ مواقف على مدى نصف قرن تقريبًا ويذهب يعقوب إلى مصر ليعيش في كنف ولده يوسف الذي تولى خزائن مصر واستقدم أهله أجمعين..

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾[1].

وجاء في سفر التكوين عند اليهود أن يعقوب أوصى إلى يوسف أن يدفن عند أبويه إبراهيم وإسحق، فلما مات استأذن يوسف عليه السلام ملك مصر وخرج بأبيه ودفنه حيث أراد.. والله أعلم.



(١) يوسف: ١٠٠.

يوسف عليه السلام

الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام، هكذا وصفه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما جاء في مسند الإمام أحمد . . ، وفي صحيح البخاري بسنده عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم، قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فَقِهُوا»[1] .

ونستطيع أن نتبين في حياة يوسف عليه السلام ونبوته ثلاث مراحل:

١ ـ مرحلة الإرهاص في فلسطين والبئر.

٢ ـ مرحلة النبوة في القصر والسجن.

٣ ـ مرحلة الجهر والتمكين على عرش الحكم وسياسة الرعية.

المرحلة الأولى:

شملت رعاية الله وعنايته يوسف منذ كان صبيًا، وتجلى ذلك في رؤياه لأحد عشر كوكبًا والشمس والقمر ساجدين له، فلقد تأولها أبوه يعقوب بالاصطفاء للوحي واستمرار النبوة في آل بيته . . قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[2] .

ومن المعلوم أن الرؤيا الصالحة جزء من النبوة، وأن أول ما بدئ به الوحي لسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الرؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

وتوالت الإرهاصات على يوسف، فحين أصر إخوته على التخلص منه، وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب، ناجاه الله وأوحى إليه بما يطمئن فؤاده ويثبت قلبه ويبشره بالفرج والنصر المبين . .

---

(١) يقال فقه ـ بكسر القاف ـ إذا فهم، فقهًا أي فهمًا، وفقُه الرجل ـ بضم القاف. إذا صار فقيهًا .

(٢) يوسف: ٦ .

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١) .

المرحلة الثانية:

تداركت رحمة الله يوسف في غيابة الجب فأبقت على حياته إلى أن مرت جماعة من الناس يسقون وأرسلوا واردهم فأدلى دلوه فتعلق به يوسف وخرج من البئر فاستبشرت تلك الجماعة به خيرًا وباعوه على وجه السرعة لعزيز مصر بثمن بخس، ودخل يوسف قصر العزيز بتكريم واحترام، وكانت هناك نية لتبنيه واتخاذه ولدًا. .

وفي قصر العزيز شب يوسف وبلغ أشده وجاءته النبوة وكرمه الله بالاصطفاء للوحي. . قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢) .

وكان ذلك تدبيرًا إلـهيًا محكمًا لا يخضع لإرادة بشر، فإن الله إذا أراد شيئًا يسر له أسبابه، وهيأ له من الأحوال ما لا يخطر على البال ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣) .

وتجلت النبوة ليوسف في صفائها وجلالها حين امتحن بامرأة العزيز وراودته عن نفسه فعصمه الله العصمة الكاملة ورأى برهان ربه وظهر صدق يقينه وطهر إيمانه واستمسك بالعروة الوثقى وآثر الأمانة في عليائها: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٤) .

ولما بلغت الفتنة منتهاها بمؤازرة نسوة المدينة لامرأة العزيز وإصرارها على الفحشاء أو التنكيل به، لجأ يوسف عليه السلام إلى الله: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٥) .

واكتملت المؤامرة بإدخال يوسف السجن رغم براءته وظهور دلائل طهارته ووضوح حجته. .

ودخل يوسف السجن وواصل مسيرة الدعوة التي بدأها في قصر العزيز، والتفت إلى من حوله من السجناء ودعاهم إلى الله وحده. . ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ

(١) يوسف: ١٥ . (٢) يوسف: ٢٢ .
(٣) يوسف: ٢١ . (٤) يوسف: ٢٣ .
(٥) يوسف: ٣٣ - ٣٤ .

الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (١) .

المرحلة الثالثة:

قضى يوسف بضع سنين في السجن ثم ظهر الصبح لذي عينين، وتجلت الحقيقة كاملة، وعرف الجميع براءة يوسف عليه السلام، وحينئذ استخلصه الملك لنفسه، بعد أن فسر له رؤياه بخطة اقتصادية تستمر خمسة عشر عامًا، تبدأ بسبع سنين يكثر خيرها ويفيض زرعها وضرعها، ثم يعقبها سبع سنين يعم فيها القحط وينتشر الجدب، ثم يكون العام الخامس عشر عام رخاء وبركة . . ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ (٢) .

وهذا الخبر من وراء الغيب إنما هو وحي إلهي تلقاه يوسف عليه السلام معجزة لنبوته . .

وتولى يوسف خزائن مصر ومارس الدعوة إلى الله في ربوعها حتى توفاه الله تعالى، وظلت دعوة يوسف على الساحة المصرية حقبًا متطاولة لم تنسخ ولم تجدد حتى جاء موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه . .

ولقد أكد القرآن هذا المعنى عندما قال على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ (٣) .

* * *

(١) يوسف: ٣٩ ـ ٤٠ . (٢) يوسف: ٤٧ ـ ٤٩ .
(٣) غافر: ٣٤ .

شعيب عليه السلام

شعيب عليه السلام نبي عربي أرسل إلى قوم من العرب يسكنون مدين من أطراف الشام مما يلي الحجاز، وعالج فيهم الفساد الاقتصادي، وأمرهم بالعدل والميزان، وإعطاء كل ذي حق حقه في إطار عقيدة التوحيد التي نادى بها كل نبي، وذكرهم بعاقبة الظالمين الذين سبقوهم في الضلال، وخص قوم لوط لقرب العهد بهم..

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ (١).

- ومعنى قوله «إني أراكم بخير» أي في معيشة رغدة، ورزق واسع، فلا تكونوا أشحاء بخلاء طامعين.

- ومعنى قوله «بقية الله خير لكم» أي الربح الحلال ولو كان يسيرًا خير من أخذ أموال الناس بالباطل، أو ثواب الله عند طاعته خير لكم من المال الكثير عند معصيته..

ومما يؤكد عروبة شعيب ما رواه ابن حبان من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «أربعة من العرب، هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر» (٢).

ويلقب شعيب بأنه خطيب الأنبياء، نظرًا لحكمة دعوته، وصبره على مجادلة قومه، وتحمله لمكابرة الملأ منهم، وروى ابن إسحق عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا ذكر شعيبًا قال: «**ذاك خطيب الأنبياء**».

- وما يقال من أن شعيبًا عليه السلام كان معاصرًا لموسى عليه السلام، وأنه الشيخ الكبير الذي سقى موسى لابنتيه ثم زوجه إحداهما - هو قول غير سديد لأكثر من سبب:

١ ـ نص القرآن المجيد على أن قوم شعيب قريبو عهد بقوم لوط، في قوله تعالى: ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ (٣).

ومن المعلوم أن لوطًا عليه السلام كان معاصرًا لإبراهيم عليه السلام.

٢ ـ ذكر الله تعالى قصة شعيب عقب قصة نوح وقصة هود وقصة صالح وقصة لوط ثم أخبر أن موسى عليه السلام أرسل بعد هؤلاء جميعًا.

---

(١) هود: ٨٤ ـ ٨٦.

(٢) الحديث وإن كان ضعيفًا إلا أنه يطابق الواقع فقبيلة عاد وثمود وأهل مدين كانوا من العرب.

(٣) هود: ٨٩.

فقال في سورة الأعراف: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١) .

وقال في سورة يونس: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (٢) .

وقال في سورة الحج: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾(٣)

٣ ـ قضى موسى مع الشيخ الكبير في مدين أتم الأجلين وأكملهما وهو عشر سنين ولم يذكر القرآن شيئًا عن دعوة هذا الشيخ الكبير إلى الله تعالى لموسى عليه السلام، فكيف يكون الشيخ الكبير هو شعيبًا خطيب الأنبياء ولا يتكلم مع موسى عليه السلام في شأن الوحي والرسالة؟!

وعندما خرج موسى بأهله عائدًا إلى مصر بعد هذه المدة الطويلة لم يكن يدري ما النبوة وما الرسالة، ولم يتوقع يومًا ما أن يتحمل دعوة إلهية إلى فرعون وقومه . .

فهل يعقل أن يعيش موسى مع نبي الله شعيب عشر سنين بعيدًا عن الدعوة وهمومها ومسئولياتها؟!

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾(٤) .

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ (٥) .

٤ ـ قال الإمام ابن كثير في تفسيره:

«ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن ههنا، وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده، ثم نقل عن ابن جرير قوله: الصواب أن هذا لا يدرك إلا بخبر، ولا خبر تجب به الحجة في ذلك» (٦) .

---

(١) الأعراف: ١٠٣ . (٢) يونس: ٧٥ . (٣) الحج: ٤٢ ـ ٤٤ .
(٤) القصص: ٢٩ ـ ٣١ . (٥) الشعراء: ١٠ ـ ١٤ . (٦) تفسير القرآن العظيم (ج٣ ص٣٨٥) .

أيوب عليه السلام

أيوب عليه السلام نبي ضرب به المثل في الصبر، ووصفه القرآن المجيد بقوله ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (١) .

وأيوب من نسل إبراهيم الخليل من بني يعقوب، قال تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢) .

والضمير في «ذريته» يعود على إبراهيم عليه السلام لأنه مورد القصة، وعليه يدور الحديث، وما أرسل الله تعالى نبيًا بعد إبراهيم إلا من ذريته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ (٣) .

ونقل الإمام ابن حجر أن ابن إسحق قال: والصحيح أنه كان من بني إسرائيل، ولم يصح في نسبه شيء إلا أن اسم أبيه أمص، والله أعلم.

وأن الطبري قال: كان بعد شعيب.

وأن ابن أبي خيثمة قال: كان بعد سليمان (٤) .

ومكان دعوة أيوب عليه السلام لم يرد فيها تحديد إسلامي يعتمد عليه.

وساق الشيخ رحمة الله الهندي أن النصارى اختلفوا في بلده على ثلاثة أقوال:

١ - إنه في إقليم العرب. ٢ - إنه في شِعْب دمشق.

٣ - إنه في أدومية (٥) .

وذكر ابن كثير أن أيوب عاش بعد شفائه سبعين سنة بأرض الروم على دين الحنيفية ثم غيروا بعده دين إبراهيم (٦) .

- وفي قصة أيوب عليه السلام مواقف تحتاج إلي تنبيه، نوجزها فيما يلي:

والتساؤل المهم هو: ما مدى الضر الذي أصاب أيوب وصبر عليه؟

- والمتتبع لآي القرآن المجيد في هذا المجال، يجد أن الله تعالى ذكر تضرع أيوب في

---

(١) ص: ٤٤ . (٢) الأنعام: ٨٤ .

(٣) الحديد: ٢٦ . (٤) فتح الباري (ج٦ ص٤٢٠) .

(٥) إظهار الحق، تحقيق عمر الدسوقي (ج١ ص٤٨١) .

(٦) البداية والنهاية (ج١ ص٢٢٤) .

سورة الأنبياء، فقال: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ (١).

وفي سورة ص قال: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ (٢).

فالنص الأول يبين أن الله تعالى استجاب لأيوب عقب ضراعته، وعبّر عن ذلك بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب، فبمجرد الدعاء تمت الاستجابة وتحقق كشف الضر، وضاعف الله له الأجر فمنحه ضعف ما سلب منه..

والنص الثاني يكشف عن أمر إلهي صادر لأيوب عليه السلام بالاغتسال والشراب من عين مائية تخرج من تحت قدميه، فيبرأ ظاهره بالاغتسال، وباطنه بالشراب، فيعود سليمًا معافى.

وفي صحيح البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «بينا أيوب يغتسل عريانًا خرَّ عليه رجْل جراد من ذهب فجعل يحثي في ثوبه(٣)، فنادى ربُّه: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك».

وفي رواية: «ولا يشبع من رحمتك».

وفي رواية: «ومن يشبع من فضلك».

ومن خلال النصوص الشرعية الصحيحة لا نستطيع أن نقول في ضر أيوب إلا أنه مرض خفيف غير منفر ولا معدٍ، ولم يترتب عليه ما يمنع مخالطة الناس له، ثم هو قد ابتلي بفقد ماله وولده، فصبر ورضي بما قسم الله له حتى كانت عاقبة الصبر حسنى..

ذلك لأن الأنبياء منزهون عن الأمراض المنفرة والأخلاقيات الذميمة، والسلوكيات المنحرفة، فهم حملة رسالة، يتعهدهم المولى سبحانه وتعالى بالرعاية قبل النبوة وبعدها.

والتعبير القرآني على لسان أيوب «أني مسني الشيطان بنصب وعذاب» هو من باب الأدب مع الله تعالى، فالشر الكوني نسبي، وليس شرًا مطلقًا، فلا أحد يدري أين يكمن

---

(١) الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤.

(٢) ص: ٤١ ـ ٤٤.

(٣) خرَّ: سقط. والرجل: بكسر الراء، الجماعة. ويحثي: يأخذ بيديه جميعًا.

الخير، ورب ضارة نافعة، وهذا الشر لا يضاف منفردًا إلى الله تعالى، بل إما أن يدخل الشر في عموم الحديث كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (١) .

أو يذكر بحذف الفاعل كما تفطنت الجن لذلك فقالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (٢) .

أو يضاف إلي المخلوق إنسًا كان أو جنًا، قال تعالى على لسان العبد الصالح حين خرق السفينة: ﴿فأردت أن أعيبها﴾ ، وحين قتل الغلام: ﴿فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما﴾ ، ولما تحدث عن إقامة الجدار وهو خير قال: ﴿فأراد ربك أن يبلغا أشدهما﴾ وعندما عدد إبراهيم عليه السلام نعم الله عليه قال: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٣) .

فنسب الخلق والهداية والإطعام والسقيا والشفاء والإماتة والإحياء والمغفرة إلى الله تعالى، ونسب المرض إلي نفسه فلم يقل: أمرضني..

- وقد نتساءل عن الرخصة الإلهية لأيوب عليه السلام بأخذ الضغث(٤) للضرب حتى لا يحنث.. فمن المضروب؟ ولماذا كان الضرب؟

وللمفسرين أقوال تلتقي على أن أيوب حلف ليضربن امرأته مائة سوط.

- واختلفوا في السبب الذي لأجله حلف عليها؟

فقيل: لأن امرأته باعت ضفائر شعرها عند الحاجة إلى الطعام، وقيل: لأن الشيطان عرض لها في صورة طبيب فقدمت به إلى أيوب فعرف أنه الشيطان..

قال الإمام الرازي: «بل الأقرب أنها خالفته في بعض المهمات، وذلك أنها ذهبت في بعض المهمات فأبطأت، فحلف في مرضه ليضربنها مائة إذا برئ، ولما كانت حسنة الخدمة له لا جرم حلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها» (٥) .

* * *

---

(١) النساء: ٧٨ . (٢) الجن: ١٠ . (٣) الشعراء: ٧٨ - ٨٢ .

(٤) الضغث: كل ما جمع وقبض عليه باليد، والمراد به جملة من الحشائش النابتة تبلغ مائة عود.

(٥) التفسير الكبير (ج٢٦ ص٢١٥) .

موسى وهارون عليهما السلام

سيدنا موسى عليه السلام نبي من بني إسرائيل، ومن أولي العزم من الرسل الذين صبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله، وقد قدم بنو إسرائيل إلى مصر من فلسطين زمن سيدنا يوسف عليه السلام الذي استقدم أهله أجمعين بعد أن أصبح على خزائن مصر..

فأقام بنو إسرائيل في موضع خاص بعيد عن الاختلاط بالمصريين يمارسون حرفتهم الأصلية وهي الرعي، ويقال: إن هذا الموضع كان في شمال بلبيس..

وبعد قرون تولى حكم مصر «ملك» اتخذ موقف العداء من العبرانيين فأراد أن يقلل عددهم فأعلن مبدأ غريبًا عبر عنه القرآن بقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١) .

وأثناء هذه العاصفة الهوجاء كان هناك رجل يسمى عمران ولدت امرأته طفلاً هو موسى فخافت عليه من كيد آل فرعون، فألهمها الله أن تصنع له صندوقًا محكم الغلق فإذا دخل عليها من تخافه وضعته في الصندوق وألقته في اليم، وهو مربوط عندها، وكان منزلها على شاطئ النهر..

وذات يوم ذهلت أن تربطه فألقته بسرعة فاحتمله الماء إلى قصر فرعون.. قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢) .

لماذا لم يفعل مثل ذلك بهارون أخي موسى؟

عندما أصدر فرعون مصر أمره بقتل الذكور واستحياء النساء خشي المصريون أن يتقلص عدد العبرانيين وهم الذين يتولون الأعمال الشاقة في مصر، فعدل القرار بأن يطبق عامًا ويؤجل عامًا آخر، فصادف أن كان هارون في عام الصفح والتأجيل، وكان موسى في عام التطبيق والتنفيذ..

وتمضي الأحداث بأن يحتفظ فرعون مصر بالطفل الرضيع بعد أن أشارت عليه بذلك امرأته وقالت - كما حكى القرآن -: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ (٣) .

---

(١) القصص: ٤. (٢) القصص: ٧.

(٣) القصص: ٩.

ثم يلهم الله الطفل الرضيع الامتناع عن المراضع حتى تأتي أخته التي كانت تتبع مسيرته في النهر وترشدهم إلى أمه الحقيقية فتولى إرضاعه..

ويشب موسى في قصر فرعون وافر القوة واسع العلم، ذكي الفؤاد، بفضل رعاية الله له، وما يحيط به من أبهة الملك والسلطان..

ولم ينس موسى عليه السلام أنه دخيل على القصر، وليس ابنًا حقيقيًا وأنه عبراني، فكان شفيعًا للإسرائيليين لدى فرعون في الأمور التي تخصهم.

أسباب الهجرة الأولى:

ذات يوم خرج موسى على حين غفلة من أهل المدينة أي في وقت تقل فيه حركة الحياة اليومية مثل منتصف النهار أو ما بين المغرب والعشاء فوجد رجلين يتنازعان هذا من شيعته أي إسرائيلي، وهذا من عدوه أي قبطي فاستغاث الإسرائيلي بموسى عليه السلام فوكز المصري فصادف أجلاً فمات المصري، ولم يعلم به أحد فواراه التراب وذهب وهو نادم أشد الندم فتوجه إلى الله بدعاء ضارع ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١) .

ماذا كان من أمر القتيل:

لم يعلم أحد بالقتيل إلا ذلك العبراني الذي كان خصمًا للقتيل.. وفي اليوم التالي خرج موسى إلى المدينة وهو يخاف أن يكتشف أمره، فإذا بعبراني الأمس يتشاجر مع مصري آخر فنادى على موسى مستغيثًا فقال له موسى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾(٢) . أي كثير الشر مشاكس، دائم الشجار، وبينما يحاول موسى أن يفض الاشتباك ويمنع القبطي من إهانة الإسرائيلي ظن هذا الإسرائيلي أن موسى يريده بالضرب والبطش، فأعلن على الملأ قصة الأمس ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (٣) .

عندئذ شاع الخبر في المدينة أن موسى هو قاتل القبطي أو المصري، ورفع الأمر بسرعة إلى فرعون مصر، فبعث في طلب موسى لعقابه، ولكن الله تعالى هيأ لموسى عليه السلام رجلاً شريفًا أتى إليه مسرعًا من أقرب طريق يقول له: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (٤) .

---

(١) القصص: ١٦ .
(٢) القصص: ١٨ .
(٣) القصص: ١٩ .
(٤) القصص: ٢٠ .

كيف تمت الهجرة:

عندما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه فرعون وقومه خرج من مصر وحده خائفًا يترقب، وعلى عجل قبل أن يلحق به أحد فتوجه تلقاء مَدْيَن وهي الأرض الواقعة حول خليج العقبة، من عند نهايته الشمالية، وشمال الحجاز وجنوب فلسطين.

فلما وصل مدين ورد ماءها وهو بئر يرده الرعاة، وكان في موقف شاق وعسير بلا زاد ولا مأوى.. وقد قص القرآن قصة المرأتين اللتين وجدهما موسى عند البئر تذودان.. فسقى لهما، ولما رجعت الفتاتان إلى أبيهما الشيخ الكبير قصتا عليه ما حدث فبعث إحداهما في طلبه.. وانتهت المقابلة بأن تزوج موسى عليه السلام إحدى هاتين الفتاتين، ومكث عند أبيها ثماني سنوات أو عشرًا ثم استأذنه في العودة إلى مصر لزيارة أهله والاطمئنان على قومه..

وخلال رحلة العودة تلقى الوحي الإلهي بالرسالة ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ (١).

وبهذا كانت هجرة موسى الأولى فاتحة الرسالة الإلهية له، فحملها إلى قومه في مصر..

المواجهة مع فرعون:

عاد موسى عليه السلام إلى مصر وهو مكلف بالرسالة وقد استأذن ربه أن يرسل معه أخاه هارون ليشد أزره ولكونه افصح لسانًا منه لأن موسى بحكم عامل الزمن الذي عاشه في مدين نسي بعض لغة المصريين بينما هارون أسلس لغة منه لأنه لم يخرج من مصر(٢).

وكانت القضية التي بلغها موسى وهارون إلى فرعون هي: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ (٣).

هنا كانت المفاجأة لفرعون فالتفت إلى موسى قائلاً: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾(٤).

---

(١) طه: ١٢ ـ ١٥.

(٢) استجاب الله دعوة موسى فنبأ أخاه هارون وجعله شريكًا له في الرسالة فتكون نبوة هارون تابعة لنبوة موسى وليست نبوة مستقلة.

(٣) طه: ٤٧ ـ ٤٨.

(٤) الشعراء: ١٨ ـ ١٩.

فرد عليه موسى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ⊛٢٠⊛ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١) .

ثم تلطف معه قائلاً: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٢) .

يعني، إذا كانت لك نعم عليَّ، فإن أكبر نعمة الآن أذكرها هي أن تمكن بني إسرائيل من عبادة الله رب العالمين.

فأخذ فرعون يستفسر من موسى عن حقيقة هذا الإله، والمعبود الجديد: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ⊛٤٩⊛ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ⊛٥٠⊛ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ⊛٥١⊛ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ⊛٥٢⊛ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ⊛٥٣⊛ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ (٣) .

ثم استعرض موسى عليه السلام معجزاته الكبرى وهي انقلاب العصا حية، وانبثاق النور المبهر من يده ، فظن فرعون أن موسى ساحر، فاتخذ معه موعدًا هو يوم الزينة، أي يوم العيد، وجمع فرعون السحرة، وجمع الناس لميقات يوم معلوم. .

وانتهى الموقف بأن انقلب سحرة فرعون مؤمنين برب موسى وهارون، عندما تحققوا أن ما جاء به موسى هو الحق ويهدي إلي طريق مستقيم. .

بعد كل ذلك رفض فرعون الاعتراف برسالة موسى وازداد طغيانًا على بني إسرائيل، فأمر الله رسوله موسى أن يعلن لفرعون وقومه ما سيقع بهم من ألوان العذاب في الدنيا والحال. . فدهمهم الفيضان، وأكل زرعهم الجراد، وأقض مضاجعهم القمل والضفادع، وأصابهم الرعاف، وغير ذلك مما عاقبهم الله به، فكانوا كلما حل بهم لون من العذاب سألوا موسى أن يدعو ربه ليكشف ما بهم حتى يرسلوا معه بني إسرائيل، ثم يرتدوا على أدبارهم كاذبين.

ويصف القرآن ذلك الموقف فيقول: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ⊛١٣٣⊛ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ⊛١٣٤⊛ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ (٤) .

---

(١) الشعراء: ٢٠ ـ ٢١.
(٢) الشعراء: ٢٢.
(٣) طه: ٤٩ ـ ٥٤.
(٤) الأعراف: ١٣٣ ـ ١٣٥.

الهجرة الثانية:

بعد كل ما تقدم جاء الأمر الإلهي لموسى بالهجرة مع قومه في حراسة إلهية كريمة قائمة على معجزة كبرى وهي فلق البحر، وضرب طريق فيه يسلكه موسى ومن معه، فإذا عبروا عاد البحر إلى سيرته الأولى.. فيطبق على الذين اتبعوهم بغيًا وعدوًا.. قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [1].

وهكذا هاجر موسى هجرته الثانية من مصر إلى سيناء حيث أقام بنو إسرائيل وأمدهم الله بالمن والسلوى، ورزقهم من الطيبات إلا أنهم بعد ذلك فتنوا وتمردوا وعبدوا العجل، فحرم الله عليهم الأرض المقدسة، وجعلهم يتيهون في الأرض..

ونسوا ما ذكروا به فتوعدهم الله أن يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾.

وفاة موسى:

وثبت في الصحيح أن موسى عليه السلام عندما جاءه الموت طلب من ربه جل جلاله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر، لأن موسى لم يتمكن من دخول الأرض المقدسة مع بني إسرائيل لغلبة الجبارين عليها، وتخاذل بني إسرائيل عن مقاومتهم فسأل موسى ربه أن يموت قريبًا منها فيدفن حيث يموت لأن ما قارب الشيء يأخذ حكمه، وللموت في الأرض المقدسة ثواب ومنزلة ورحمة.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: أرسل ملك الموت إلى موسى عليهما السلام، فلما جاءه صكه، فرجع إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، قال: ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور، فله بكل ما غطت به يده بكل شعرة سنة. قال: أي رب، ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن.

فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رميةً بحجر. قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب[2] الأحمر».

وإنما صك موسى المَلَك أي فقأ عينه لأنه جاءه على صورة بشر، واقتحم عليه خلوته، فظنه موسى رجلاً يريد به شرًا.

---

(١) الدخان: ٢٣ ـ ٢٩.

(٢) الكثيب: بوزن عظيم ـ الرمل المجتمع.

فلما عاد المَلَك إلى موسى مرة ثانية سليم العين تنبه إلى حقيقة الشخصية التي دخلت عليه وأنه مَلَك وليس بشرًا، وأن ما حدث له على يد موسى لم يؤثر في شخصية الملائكة.

وتشكل المَلَك بالصورة الآدمية تكرر مع الأنبياء كثيرًا فقد دخل الملائكة على إبراهيم ضيفًا مكرمين ولم يعرف حقيقتهم ولذلك قدم لهم الطعام.

ودخل الملائكة على لوط شبابًا حسانًا ولم يعرف حقيقتهم ولذلك ضاق بهم ذرعًا وخشي عليهم من اغتصاب القوم لهم..

وموت موسى عليه السلام لم يكن فيه تقديم ولا تأخير وإنما مات لأجله الذي حدده الله تعالى له، وما حدث من المراجعة مسجل في اللوح المحفوظ ومعلوم أزلاً لله جل جلاله..

* * *



داود عليه السلام

داود عليه السلام نبي ملك، حكم بني إسرائيل في أرض بيت المقدس، وذكر القرآن مؤهلات حكمه ومواهبه التي منحها الله له..

لقد اجتمع لداود عليه السلام العلم والحكمة والقوة، وظهرت أولى مواهبه في المعارك الحربية التي خاضها تحت قيادة الملك طالوت الذي بعثه الله ملكًا على بني إسرائيل من بعد موسى.

واستطاع داود أن يقتل الخصم اللدود، وينتصر على العدو الغاشم، قال الله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ (١) .

والحكمة هي الإصابة في القول والعمل، وهي معرفة الحق لذاته، والخير للعمل به، وهي وضع الأمور في نصابها، وهي الفطنة لمواقع الأحداث، ولكي يتحقق ذلك لا بد أن ينبع السلوك من الولاء لله ودينه ومنهجه أو بعبارة أخرى لا بد من شكر الله المنعم المتفضل..

وقد حظي داود بهذه المعاني كلها، قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (٢) .

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣) .

إن داود النبي الملك كان ورعًا تقيًا نقيًا، رفض أن يأكل من مال ملكه وآثر العمل الخاص، يقوت منه نفسه وولده، وشغل أوقات فراغه القليلة بعمل الدروع وصناعتها صناعة فائقة، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾(٤)

وصنعة اللبوس: هي لباس الحرب التي هي الدروع، يلبسها المقاتل لتحفظه من الإصابة بسلاح عدوه.

وقال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٥) .

---

(١) البقرة: ٢٥١ . (٢) سبأ: ١٣ .
(٣) النمل: ١٥ . (٤) الأنبياء: ٨٠ .
(٥) سبأ: ١٠ ـ ١١ .

والسابغات: هي الدروع السابغة التي تستر بدن المقاتل، والتقدير في السرد: هو إحكام الصنعة ودقتها . .

وامتن الله تعالى على داود فمنحه الصوت الندي الذي يترنم به في تسابيحه، وسخر معه الجبال والطير تردد صوت هذا التسبيح الطاهر . .

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (١) .

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ (٢) .

- وقد امتدح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخاه داود عليه السلام في عمله وعبادته، فقال - كما في الصحيح -: «**ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده**» .

وفي صحيح البخاري أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لعبد الله بن عمرو ابن العاص: «**أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، ويصوم يومًا ويفطر يومًا**» .

وجاء في فتح الباري: وإنما صارت هذه الطريقة أحب من أجل الأخذ بالرفق للنفس التي يخشى منها السآمة، وقد قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «**إن الله لا يمل حتى تملوا**» والله يحب أن يديم فضله ويوالي إحسانه، وإنما كان ذلك أرفق لأن النوم بعد القيام يريح البدن، ويذهب ضرر السهر وذبول الجسم، بخلاف السهر إلى الصباح، وفيه من المصلحة أيضًا استقبال صلاة الصبح وأذكار النهار بنشاط وإقبال، وأنه أقرب إلى عدم الرياء، لأن من نام السدس الأخير أصبح ظاهر اللون سليم القوى، فهو أقرب إلى أن يخفي عمله الماضي على من يراه . .»(٣) .

وذكر العلماء أن داود عليه السلام مات فجأة، وساق الإمام أحمد في مسنده حديثًا إسناده جيد قوي ورجاله ثقات عن أبي هريرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة، فكان إذا خرج أغلق الأبواب، فلم يدخل على أهله**

---

(١) الأنبياء: ٧٩ .
(٢) ص: ١٩ .
(٣) فتح الباري لابن حجر (ج٣ ص١٦) .

أحد حتى يرجع، قال: فخرج ذات يوم، وغُلقت الدار، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسْط الدار، فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة، والله لنفتضحن بداود، فجاء داود فإذا الرجل قائم في وسْط الدار، فقال له داود: مَن أنت؟ قال: أنا الذي لا أهاب الملوك، ولا أُمنع من الحجاب، فقال داود: أنت والله إذن - ملك الموت، مرحبًا بأمر الله، ثم مكث حتى قبضت روحه، فلما غسل وكفن وفرغ من شأنه، طلعت عليه الشمس، فقال سليمان للطير: أظلي على داود، فأظلته الطير حتى أظلمت عليه الأرض، فقال سليمان للطير: اقبضي جناحًا..» قال أبو هريرة: فطفق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرينا كيف فعلت الطير، وقبض رسول الله بيده، وغلبت عليه المضرحية[1] .



(١) المضرحية: الصقور الطوال الأجنحة، واحدها مضرحي.

سليمان عليه السلام

حفظ الله داود عليه السلام في ذريته، ووهبه سليمان عبدًا صالحًا، ونبيًا كريمًا، وملكًا عادلاً، قال تعالى: ﴿ووَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (١) .

وورث سليمان النبوة والملك دون إخوته، ولم يرث مالاً لأن الأنبياء لا يورثون دينارًا ولا درهمًا، وما تركوه فهو صدقة، ولم يكن داود ليخص سليمان بالمال دون باقي إخوته.

قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (٢) .

وعاش سليمان في بيت المقدس وقاد جيشًا لم يجتمع لبشر، قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (٣) .

ومكن الله لسليمان، فسخر له الجن في عمليات البناء والتعمير، فقال: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ (٤) .

وسخرهم سليمان في اكتشاف الثروة المائية، قال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ (٥) .

وعم الأرض في عهد سليمان خصب ونماء، وجرت الأنهار، وأينعت الثمار .. قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ (٦) .

- وامتد سلطان سليمان عليه السلام إلى اليمن، بعدما حمَّل الهدهد خطابًا إلى ملكة سبأ يدعوها فيه إلى الإسلام وعبادة الله وحده، وظنت الملكة أن سليمان ملك طاغية يسعى إلى السلطة ويلهيه المال، فبعثت إليه بهدية ملكة إلى ملك، فلما جاء حاملها إلى سليمان رفضها رفضًا قاطعًا، ولقنهم درسًا في الأخلاق، وحملهم إنذارًا إلى قومهم:

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٧) .

---

(١) ص: ٣٠ . (٢) النمل: ١٦ . (٣) النمل: ١٧ .
(٤) سبأ: ١٣ . (٥) ص: ٣٧ . (٦) ص: ٣٦ .
(٧) النمل: ٣٦ - ٣٧ .

وعاد الوفد اليمني حزينًا كئيبًا، وجمع سليمان مجلس حكمه ومستشاريه من الجن والإنس، وعرض عليهم فكرة إحضار عرش ملكة سبأ من اليمن، لأنه أيقن أنها ستقدم عليه وتنزل في بلاطه، وتناقشه في رسالته، وتنقاد لدينه.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (١) .

وذكر ابن كثير عن الثعلبي وغيره أن سليمان تزوج ملكة سبأ وأقرها على مملكة اليمن، وردها إليه، وكان يزورها في كل شهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام .

وروى ابن إسحق عن بعض أهل العلم أن سليمان لم يتزوجها بل زوجها بملك همدان، وأقرها على ملك اليمن، والأول أشهر وأظهر والله أعلم (٢) .

وعاش سليمان قرير العين شاكرًا لأنعم الله، توابًا أوابًا حتى جاءه اليقين فتوفي على كرسيه لم يعلم به أحد من الإنس والجن، ومكث فترة زمنية وهو متكئ على عصاه حتى أكلتها الأرَضَة على مدى سنة كما قيل في بعض الروايات.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (٣) .

* * *

(١) النمل: ٣٨ ـ ٤٠ .
(٢) البداية والنهاية (ج٢ ص٢٤) .
(٣) سبأ: ١٤ .

يونس عليه السلام

يونس بن متّى من بني إسرائيل بعد داود وسليمان عليهما السلام، وقبل زكريا ويحيى عليهما السلام..

وجاءت سورة قرآنية تحمل اسم هذا النبي الكريم، وهي السورة العاشرة في ترتيب المصحف الشريف، وورد اسمه في ثلاث سور أخرى هي النساء والأنعام والصافات، ووصف في القرآن العظيم بوصفين هما: ذو النون في سورة الأنبياء، وصاحب الحوت في سورة القلم..

وبما أن سورة القلم هي السورة الثانية نزولاً عقب سورة العلق فإن ذكر يونس عليه السلام قد بدأ مبكرًا في العهد المكي، وتكرر الحديث عنه في عدة سور مكية، حتى جاء العهد المدني ونزلت سورة النساء، وفيها قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ (١).

ومرت رسالة يونس عليه السلام بمرحلتين: مرحلة قبل أن يلتقمه الحوت، ومرحلة بعد أن خرج من بطن الحوت..

وعن المرحلة الأولى: جاء قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٢).

وذكر المفسرون أن هذه القرية هي نينوى من أرض المَوصل بالعراق.

و «لولا» بمعنى «ما» النافية، أي ما وجدت قرية آمنت بعد كفر واستحقاق للعذاب فنفعها إيمانها إلا قرية قوم يونس..

أو بمعنى «هلاَّ» التي تفيد التخصيص والتوبيخ، أي ألا وجدت قرية واحدة من القرى التي أهلكها الله، تابت وأخلصت في إيمانها قبل حلول العذاب عليها إلا قوم يونس، ويئول المعنى إلى النفي أي ما وجدت.. لقد مكث يونس عليه السلام يدعو قومه إلى التوحيد والاستقامة على المنهج الإلهي فكذبوه ورفضوا دعوة الحق، فلما أيس من إيمانهم تركهم آسفًا عليهم وخرج من بين أظهرهم غضبان لله تعالى، وتوعدهم بعقاب يستأصلهم ويقضي عليهم.

---

(١) النساء: ١٦٣.
(٢) يونس: ٩٨.

وتذكر كتب التفسير أن يونس عليه السلام أمهل قومه أربعين ليلة، فلما اقترب الوعد الحق آثروا التوبة، ورجعوا إلى الإيمان، وأكثروا الدعوات الضارعات، وردوا المظالم إلى أهلها، حتى قيل إن الرجل منهم كان يقلع الحجر بعد أن وضع عليه بناء أساسه فيرده إلى مالكه..

وسيقت روايات عن بعض الصحابة تحدد بعض أدعيتهم .. منها ما نسب إلى الفضل ابن عباس أنهم قالوا:

اللهم إن ذنوبنا قد عظمت، وأنت أعظم منها وأجل، افعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله..

فلما آمنوا واستكانوا واستغاثوا كشف الله عنهم الوعيد ومنع عنهم عذاب الاستئصال.

- وقد يرد هنا تساؤل: كيف ينفعهم الإيمان بعد أن لاحت النذر واقترب الوعيد وهاجر نبيهم، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ (١) .

وقد رفض القرآن إيمان فرعون حين غشيه اليم وأطبق عليه الماء، وقال: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (٢) .

والجواب: أن العذاب لم يحل بعد على قوم يونس لما آمنوا، فهم تداركوا الأمر وتضرعوا إلي الله تعالى قبل نزول العذاب، فكانت أمامهم فسحة من الوقت لتصحيح العقيدة، وتغيير السلوك، والإنابة إلى الله ..

فاستحقاق العذاب عليهم لم تتوفر أسبابه كلها، ولم تتم مقدماته بأسرها..

أما فرعون فلم ينفعه إيمانه لأنه عاين العذاب، وأدركه الغرق، فهناك فرق كبير بين تحقق العذاب، وقرب تحققه..

وقد يرد تساؤل آخر عن سر التأقيت في قوله تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ هل هذا الحين خاص بالدنيا، فإيمان قوم يونس في هذه اللحظات الأخيرة منع عنهم عذاب الدنيا فقط، أو أنه يكشف العقابين في الدنيا والآخرة ؟

والذي نراه أولى بالمقام هو أن الإيمان ينفعهم في الدنيا والآخرة معًا، لأن الله تعالى اثبت لهم الإيمان، ومتى ثبت الإيمان انتفى عذاب الكفر..

---

(١) يونس: ٩٦ - ٩٧ .　(٢) يونس: ٩١ - ٩٢ .

ولعل التقييد بالحياة الدنيا مراعاة لمقتضى الحال، فالموقف يتعلق بعذاب حان وقته، فناسبه التعبير بكشفه، وجاء الخبر بالتمتيع إلى حين مرادًا به الفترة التي غاب فيها يونس عنهم، فلما عاد إليهم ناصروه وآزروه واتبعوا النور الذي جاء به . .

المرحلة الثانية:

وعن هذه المرحلة جاء قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (١) .

لقد خرج يونس من قومه مغاضبًا لله ساخطًا على قومه لما يئس من إيمانهم، وركب سفينة أخذت حمولتها، فلما تحركت بدأ الاضطراب عليها، ولم يعد القوم قادرين علي مواصلة السير بالسفينة أو العودة بها إلى الشاطئ، فلم يكن بد من تخفيف الحمولة بإجراء قرعة، فوقع السهم على يونس عليه السلام، وألقي في اليم فالتقمه الحوت من غير أن يأكل له لحمًا أو يهشم له عظمًا . .

وحينئذ أدرك يونس أنه هاجر قبل أن يتلقى الإذن الإلهي فنادى في ظلمات الحوت والبحر والليل هاتفًا بدعاء ربه: «**لا إله إلا أنت، سبحانك إني كنت من الظالمين**» .

فاستجاب الله دعاءه، وكشف ضره، ولفظه الحوت على شاطئ البحر في مكان قفر وهو كهيئة الفرخ ليس عليه ريش . .

وأنبت الله عليه شجرة من القرع يأكل منه، ويتفيأ ظلاله حتى عاد سيرته الأولى، ومارس الدعوة إلى الله من جديد، وتلقاه قومه بالإيمان، وكانوا مائة ألف أو يزيدون.

- وللمفسرين وقفة مع قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ :

فلقد فهم البعض أنه إرسال لقوم آخرين ليسوا هم أهل قرية يونس التي هاجر منها.

لكن المناسب للسياق، والملائم للقصة أن يونس عليه السلام أرسل بعد خروجه من بطن الحوت إلى قومه أنفسهم الذين فرَّ منهم، لأنهم أدركوا خطأهم، وصححوا مسيرة حياتهم. فالإرسال المعبر عنه في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ليس إرسالاً جديدًا، ولا لقوم آخرين، وإنما هو تعبير قرآني لبيان مفهوم الإرسال المذكور في مفتتح القصة ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فبدأت الآيات في سورة الصافات تذكر موقف يونس عليه

---

(١) الصافات: ١٣٩ - ١٤٨ .

السلام في الفلك والبحر، ثم عادت في نهاية القصة لتبين المرسل إليهم، فقوله تعالى «وأرسلناه» هو تفسير لقوله تعالى «لمن المرسلين»، فهو من المؤخر في الذكر، الذي حقه التقديم في الفهم.

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾، وهو نفس المعنى المذكور في سورة يونس ﴿لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾

والحين هو فترة وجود يونس عليه السلام في البحر.

ويمكن أن يراد بقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ الإرسال ثانيًا إلى قومه أنفسهم بعد تلك التجربة القاسية في الظلمات[١].

وتحكي كتب السيرة أنه لما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب، فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف، والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل..

وكان يومًا شديدًا على رسول الله، أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة..

فعمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى ظل شجر العنب فجلس فيه، والتقى هناك بغلام يقال له عداس، قدم إليه طبقاً فيه قطف عنب، فلما وضع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يده فيه قال: «بسم الله»، ثم أكل، فقال عداس: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «**ومنْ أهل أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟**» قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «**من قرية الرجل الصالح، يونس بن متّى**» فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متّى؟ فقال رسول اله - صلى الله عليه وسلم - : «**ذاك أخي، كان نبيًا وأنا نبي**» فأكب عداس على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقبّل رأسه ويديه وقدميه..»[٢].

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع التفسير الكبير للرازي جـ ١٧ ص١٧١، ج٢٦ ص١٦٣)، والبداية والنهاية. لابن كثير (ج١ ص٢٣١).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق الأساتذة/ مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي. (ج١ ص٤١٩) ط. سنة ١٩٥٥ م.

اليسع عليه السلام

ورد هذا الاسم في سورة الأنعام في قوله تعالى:

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (١).

وجاء في سورة «ص» في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ﴾ (٢).

وسياق الآيات في الإشارة بالأنبياء فيكون اليسع نبيا منهم فهو من الأخيار المفضلين على عالمي زمانهم.

ولا نجد تفصيلات لحياة هذا النبي الكريم ودعوته في كتب التفسير أو التاريخ

ويكاد يكون الأمر منحصرا في أن اليسع صاحب نبي الله إلياس أو تلميذه أو ابن عمه، وأنه نبئ بعد رفع إلياس، وخلفه في قومه في بعلبك ونقل الإمام القرطبي أن قوما توهموا أن اليسع هو إلياس أو أن اليسع هو الخضر.

ونحن نرى أن هذا التوهم لا قيمة له.. (٣).

* * *

(١) الأنعام: ٨٦ (٢) ص: ٤٨

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ٤ صـ٣١، البداية والنهاية لابن كثير جـ٢ صـ٤ والمعارف لابن قتيبة صـ٣٠.

زكريا ويحيى عليهما السلام

زكريا عليه السلام نبي من أنبياء بني إسرائيل، بلغ من الكبر عتيًا، ولم ينجب، وكفَلَ مريم عليها السلام بعد ميلادها لأنه كان زوج أختها أو خالتها على اختلاف الروايات.

وعاش في القدس، وقريبًا من نهر الأردن، ذلك النهر الذي أشار إليه القرآن المجيد في قصة طالوت، فقال: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ (1) .

وأشار إليه القرآن في قصة زكريا وكفالته لمريم، فقال: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾(2) .

فقد اقترعوا على كفالة مريم بإلقاء الأسهم في نهر الأردن، فأيهم ثبت سهمه ولم يختف فهو أحق بمريم. .

وتحرك قلب زكريا للولد فقام من ليله وهتف بدعاء ربه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ (3) .

ولم يكن زكريا عليه السلام يخشى من انتقال ماله إلي عصبته، فلم يكن ذا ثروة، فقد جاء في صحيح البخاري أنه كان نجارًا يأكل من عمل يده، ثم إن الحكم العام أنه لا ميراث من الأنبياء، لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : **«نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا صدقة»** .

وإنما طلب زكريا الولد ليرثه في النبوة والملك، وليسوس بني إسرائيل من بعده وفق منهج الله .

واستجاب الله تعالى دعاء زكريا في إنجاب الولد وبشره بيحيى، ولم يسم أحد قبله بهذا الاسم، قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (4) .

وأعطى الله الحكمة ليحيى صبيًا ومنحه النبوة وطهره تطهيرًا. .

---

(1) البقرة: ٢٤٩ .
(2) آل عمران: ٤٤ .
(3) مريم: ٤ ـ ٦ .
(4) آل عمران: ٣٩ .

وقد صح في حديث الإسراء والمعراج أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ التقى في السماء الثانية بابني الخالة عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما، فرحبا به ودعوا له بالخير . .

واختلفت الروايات في نهاية زكريا هل قتل أو مات؟

كما اختلفت في مكان نهاية يحيى هل قتل في القدس أو في دمشق؟

لقد قتل يحيى في حياة زكريا، ولم تتحقق رغبة زكريا في ميراث النبوة بعده . . ولله الحكمة البالغة . .

وتعددت الروايات في سبب قتل يحيى، فقيل: إن بعض ملوك دمشق أراد أن يتزوج إحدى محارمه فنهاه يحيى فأسرها في نفسه هو وزوجته، فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه عندها.

وقيل: إن امرأة الملك وقعت في غرامه لفرط جماله وراودته عن نفسه، فأبى عليها فبعثت إليه من قتله وأحضر لها رأسه ودمه . . [1] .

أيا ما كان فإن بني إسرائيل شاع عنهم قتل أنبيائهم والمصلحين فيهم، وسجل القرآن المجيد ذلك عليهم، فقال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [2] .

وتكرر ذلك في القرآن مرات عدة . . حتى أصبح الغدر وسفك الدماء طبيعة متأصلة في اليهود.

* * *

(١) راجع البداية والنهاية ـ لابن كثير (ج٢ ص٤٧ ـ ٥٥) .

(٢) البقرة: ٦١ .

المسيح عليه السلام

عيسى هو آخر أنبياء بني إسرائيل، من ولد إسحق بن إبراهيم عليهما السلام..
وينسب إلى أمه فقط فيقال: عيسى ابن مريم، لأن قدرة الله تعالى أبدعته علي غير ما ينشأ منه سائر البشر، فقد ولدته أمه دون أن يمسها بشر تأكيدًا لطلاقة القدرة الإلهية المبدعة، وتنبيهًا إلى أن الأسباب والمسببات مرهونة بمشيئة الله تعالى، وتتميمًا للقسمة العقلية، فقد أوجد الله إنسانًابلا أب ولا أم وهو آدم عليه السلام، وأوجد إنسانًا بأب دون أم وهي حواء، وانتشرت الذرية من آباء وأمهات وصارت سنة جارية إلى يوم القيامة لم تتخلف إلا في عيسى عليه السلام الذي ولد بغير أب..

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [١].

وبشارة الملائكة هي بشارة جبريل الأمين، وعبَّر بالجمع عن المفرد لأن جبريل سفير الوحي وأفضل الملائكة، وإطلاق الكلمة على المسيح من باب إقامة المصدر مقام الوصف للمبالغة، فالأصل أن عيسى متكلم (اسم فاعل) لأنه تكلم في المهد أو متكلم به (اسم مفعول) لأنه أثر الكلمة التكوينية الإلهية «كن فيكون». كما يقال: فلان علم أي عالم، وكما في قوله تعالى: ﴿هذا خلق الله﴾ [٢] أي مخلوق الله.

وإنما خص عيسى بأنه كلمة الله مع أن الجميع صادر عن الله تعالى بكلمته التكوينية من باب التشريف، كما خصت ناقة صالح عليه السلام بأنها ناقة الله، في قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [٣] مع أن النوق كلها لله..

ووصف عيسى عليه السلام بالمسيح لكثرة سياحته أو لكونه ممسوح الجلد أي ناعمه أو لكونه يبرئ الأكمه والأبرص بإمرار يده على موضع الداء فيبرأ بإذن الله..

وقد حملت مريم عليها السلام بعيسى في المكان الشرقي لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي

---

(١) آل عمران: ٤٥ ـ ٤٧.
(٢) لقمان: ١١.
(٣) هود: ٦٤.

الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ (١) .

والمكان الشرقي هو شرق المسجد الأقصى، فقد اعتزلت المسجد لحيض أصابها، أو لشيء ألم بها، فخرجت من المسجد الذي كانت تتعبد فيه، فحدثت لها هذه المناجاة الروحية، ووقعت عليها هذه البركة الإلهية ، وحلت بها تلك النفحة الربانية.

وقيل: إن المكان الشرقي هو الواسع الشاسع النائي..

ولما حملت مريم وأثقلت واستشعرت من قومها الفتنة ذهبت هاربة من مكان إقامتها في بيت المقدس إلى أن جاءها المخاض إلى جذع النخلة..

ويقال: إنها وضعت في بيت لحم على بعد ثمانية أميال من بيت المقدس، وجرى لها في هذا المكان من التكريم الإلهي والتثبيت وخوارق العادات ما جعلها تثق أن الله تعالى يؤيدها ويهيئها لمستقبل عظيم، وأمرجلل،

قال تعالى: ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ (٢) .

وحان وقت المواجهة مع قومها، فجاءتهم تحمل وليدها على صدرها، وتناقل الناس الخبر وانطلقت الشائعات وتعجب الجميع وتاهت عقول القوم. ﴿ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ (٣) .

وإنما قيل لها: يا أخت هارون، لأنها من نسل هارون أخي موسى، وهي على شاكلته في العبادة والتقوى، أو نسبة إلى رجل صالح من قومها، والناس يسمون بأسماء الأنبياء والصالحين، فكيف تنكرت لهذا الأصل الكريم، وكيف خرجت على تلك البيئة الطاهرة ؟!

وتكلم عيسى في المهد ليحسم الموقف وليرد الشبهة وليدافع عن أمه البتول..

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (٤) .

---

(١) مريم: ١٦ .
(٢) مريم: ٢٣ ـ ٢٦ .
(٣) مريم: ٢٧ ـ ٢٨ .
(٤) مريم: ٣٠ ـ ٣٣ .

وتفيد بعض الروايات الإنجيلية أن عيسى عليه السلام في صغره قدم إلى مصر مع أمه مريم وزوجها يوسف النجار مدة حكم هيرودس ملك اليهود الذي كان يتعقب كل طفل يولد في بيت لحم . .

وحمل بعض المفسرين الآية الكريمة ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ (١) .على أن الربوة هي أرض مصر . .

وساق الإمام ابن كثير هذه الروايات: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ليس الربى إلا بمصر، والماء حين يسيل يكون الربى عليها القرى، ولولا الربى غرقت القرى.

وقال عكرمة عن ابن عباس: ذات قرار ومعين: أنهار دمشق.

وقال مجاهد: إلى ربوة إلى غوطة دمشق وما حولها.

وقال أبو هريرة: هي الرملة من أرض فلسطين.

ثم ذكر ابن كثير أن أقرب الأقوال ما رواه العوفي عن ابن عباس قال: المعين الماء الجاري وهو النهر الذي قال الله تعالى: ﴿قد جعل ربك تحتك سريا﴾ ، وكذا قال الضحاك وقتادة: إلى ربوة ذات قرار ومعين هو بيت المقدس.

فهذا - والله أعلم - هو الأظهر لأنه المذكور في الآية الأخرى، والقرآن يفسر بعضه بعضًا، وهذا أولى ما يفسر به ثم الأحاديث الصحيحة ثم الآثار (٢) ».

هذا ومسألة زواج مريم بعد ميلاد المسيح بيوسف النجار مسكوت عنها في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، فلم يرد ليوسف النجار أي ذكر فيهما . .

والرواية الإنجيلية محل شك كبير لدى الباحثين، فلم يذكرها إلا متّى في الإصحاح الثاني من إنجيله، وتفيد هذه الرواية أن المسيح بعد ولادته كان يقيم مع يوسف النجار ومريم في بيت لحم، وأن هذه الإقامة كانت مدة سنتين من عمر المسيح، وجاء المجوس من المشرق يتتبعون نجمًا يسوقهم إلى مكان المولود المنتظر ليكون ملك اليهود، فظلوا يسيرون وراء النجم حتى وصلوا إلى المسيح وسجدوا له، ونقل الخبر إلى هيرودس حاكم اليهود يومئذ، فاضطرب وجمع الكهنة وأمر بذبح الأطفال المولودين في بيت لحم، فخرج المسيح مع أمه وزوجها وهربوا إلى مصر مدة حكم هيرودس . .

ويعلق العلامة عبد الرحمن زاده قائلاً:

---

(١) المؤمنون: ٥٠ .

(٢) تفسير القرآن العظيم (ج٣ ص٢٤٦) .

إن مجيء المجوس من الشرق وانصراف المسيح وأمه إلى مصر من الكذب الصريح الذي انفرد به المترجم (متّى) ولم يوافقه أحد من رواة الأناجيل الثلاثة ولا أصحاب الرسائل ولا أحد من المؤرخين الذين يعتبر ضبطهم للوقائع..

فإذا علمت هذا وضممت إليه قول لوقا إنه بعد تمام النفاس ذهب يوسف النجار ومريم بالصبي إلى أورشليم، ولم يقيما في بيت لحم، لم يكن مجال لتصديق هذا المترجم (متّى) ألبتة.

ثم إن المجوس لم يكونوا تابعين لملك اليهود، ولا يدينون بشريعة نبي حتى ينتظروا مجيء المسيح.

ثم إن ما حكاه من أمر هيرودس بذبح الأطفال يقتضي أن هيرودس وأهل أورشليم كانوا أضدادًا للمسيح، ولم يذكر لوقا ذلك وسياق عبارته عن سمعان الذي كان رجلاً صالحًا، وإخبار النبية حنة بهذا الخبر في أورشليم التي كانت دار السلطنة لهيرودس ـ تشعر بكذب ما حكاه المترجم (متّى).

ومثل هذه الحادثة ظلم عظيم على أهالي تلك التخوم، وعيب جسيم على هيرودس، فلو وقعت وهو ملك أورشليم لكتبها المؤرخون من اليهود وغيرهم الذين كانوا يكتبون ذمائم هيرودس، ويتصفحون عيوبه وجرائمه..

ثم يضيف العلامة عبد الرحمن زاده:

هناك شاهد عقلي وهو أن بيت لحم بلدة صغيرة قريبة من أورشليم وهي في تسلط هيرودس وتحت سيطرته، وبأسهل وجه كان يمكنه أن يتحقق أن المجوس جاءوا إلى المسيح وفعلوا ما أتوا لأجله، ويقف على جميع ذلك بلا تكلف إلى قتل هؤلاء الأطفال المعصومين..

ومن خرافات المترجم (متى) حكايته عن هيرودس أنه دعا المجوس سرًا، وتحقق منهم أمر الصبي، وقال لهم: متى وجدتموه؟ أخبروني لكي آتي أنا أيضًا وأسجد له.. فهل يناسب هذا مع قوله: إنه عادًا بالمجوس أمر بقتل جميع الصبيان الذين في بيت لحم، ولم تكفه هذه المقالة حتى ضم إليها قوله «وفي كل تخومها» ، مع أنه تحقق منهم أن المولود في بيت لحم.

ثم إن مقتضى الحكاية أن أبويه ذهبا به إلى مصر وأقاما فيها إلي أن هلك هيرودس، ولوقا يكذب متّى، وهو الحق الصريح الذي عليه عموم المؤرخين لأن يوسف لم يسافر قط

من أرض يهودية لا إلى مصر ولا إلى غيرها . . » (١) .

ومن هنا نعلم أن ما يسمى «شجرة مريم» في منطقة المطرية بالقاهرة، وما يقال عن مسار العائلة المقدسة في أرض مصر هو من الخرافة التي تأصلت في عقول النصارى وتواطأ عليها رؤساء دينهم، واتخذوها سبيلاً لمكاسب مادية رخيصة . .

ولما بلغ المسيح رشده آتاه الله النبوة، وحمله رسالة إلى بني إسرائيل خاصة تقوم على التوحيد الخالص لله رب العالمين وشريعة موسى عليه السلام، إلا في بعض أحكام اقتضتها مصلحة العباد يومئذ .

قال الله تعالى : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (٢) .

قال الإمام ابن كثير :

فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح من القولين، ومن العلماء من قال : لم ينسخ منها شيئًا وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه خطأ، وكشف لهم عن الغطاء في ذلك كما قال في آية أخرى : ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ (٣) والله أعلم» (٤) .

وأدى عيسى عليه السلام رسالته وسط مكائد يهودية كثيرة، انتهت بمحاكمته وإصدار حكم بقتله وصلبه، ولكن الله نجاه من كيدهم، وأنقذه من بين أيديهم ورفعه إليه .

قال تعالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (٥) .

* * *

(١) الفارق بين المخلوق والخالق . للعلامة عبد الرحمن زاده . (ص ٣٠) ط . البيان التجارية - دبي سنة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

(٢) آل عمران : ٥٠ ـ ٥١ . (٣) الزخرف : ٦٣ .

(٤) تفسير القرآن العظيم (ج١ ص ٣٦٥) .

(٥) النساء : ١٥٧ ـ ١٥٨ .

محمد صلى الله عليه وسلم

ختم الله النبوة والرسالة بسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وانقطع الوحي الإلهي بانتقاله إلى الرفيق الأعلى . .

ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو ابن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، سلالة الأطهار وسليل الكرام، يذكر المؤرخون الإجماع في النسب الشريف على عشرين جدًا، هكذا:

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة ابن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . .

ولا خلاف أن عدنان من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وما بين عدنان وإسماعيل مختلف فيه، وكان ابن عباس وغيره إذا بلغ عدنان قال: كذب النسّابون.

وكره الإمام مالك رفع النسب إلى ما بعد عدنان.

ويروى عن عروة بن الزبير قوله: ما وجدنا أحدًا يعرف ما وراء عدنان ولا ما وراء قحطان [١] إلا تخرصًا.

وكان قوم من السلف منهم عبد الله بن مسعود، وعمرو بن ميمون الأزدي، ومحمد ابن كعب القرظي، إذا تلوا ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [٢] قالوا: كذب النسّابون[٣]

ويكفي أن نؤمن بالحديث الشريف - كما في صحيح مسلم - أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**» .

وقد ولد سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتيمًا في مكة المكرمة، عام الفيل سنة ٥٧١ هـ ، ونشأ في رحاب البلد الأمين يرعى الغنم كما كان يرعاها الأنبياء من قبل، ففي صحيح البخاري قال عليه الصلاة والسلام: «**ما بعث الله نبيًا إلا وقد رعى الغنم**» فقال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: «**وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط**» [٤] .

ثم ذهب عليه الصلاة والسلام في شبابه المبكر مع عمه أبي طالب في تجارة إلى الشام، وفي مرحلة شبابه المتأخر تسامعت به السيدة خديجة بنت خويلد، فعرضت عليه أن

---

(١) قحطان: جد العرب العاربة، ومهدها بلاد اليمن، ثم انتشرت في أنحاء الجزيرة العربية.

(٢) إبراهيم : ٩ .

(٣) راجع البداية والنهاية . لابن كثير (ج٢ ص ١٩٤) .

(٤) القراريط: أجزاء من الدراهم والدنانير يشترى بها الحوائج اليسيرة.

يخرج لها في تجارة إلى الشام لما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه..

فبارك الله في هذا المال وربحت التجارة ربحًا كبيرًا..

ومن هنا حرصت السيدة خديجة - وهي ذات الشرف والنسب - على أن تقترن بهذا الرجل الأمين ليحفظ لها أموالها ويصون ثروتها ولتسكن إليه في وحدتها، فهي الثيب الأرملة بعد زوجيها أبي هالة بن زرارة، وعتيق بن عائذ..

وتزوجها سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وعاش معها خمسًا وعشرين سنة وفيًا أمينًا، ورزقه الله منها البنين والبنات، ولم يتزوج عليها امرأة أخرى رغم فارق السن بينهما، وظلت حبه الأول والكبير..

تقول السيدة عائشة - كما في الصحيح - : (ما غِرْتُ على امرأة ما غرت على خديجة، وما رأيتها قط، ولكن كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يبعثها في صدائق خديجة) .

وتنزه سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن نقائص وتناقضات المجتمع الجاهلي، وعصمه الله عصمة كاملة، فلم يشارك في لهو ولم يسجد لصنم، واختار الخلوة بغار حراء اعتزالاً لباطل قومه، وفكرًا وتأملاً في ملكوت السموات والأرض، ونظرًا إلى الكعبة المشرفة من قمة جبل النور..

وهو في خلوته هذه لم ينس واجب المواساة للضعفاء وذوي الحاجات، فكان يطعم من جاءه من المساكين، وكلما فرغ زاده عاد إلى بيته ليتزود.

وغار حراء كهف في قمة جبل بينه وبين مكة ثلاثة أميال عن يسار الذاهب إلى مِنَى، وفي هذا الغار تلقى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسالة ربه، والتقى بجبريل الأمين في اليوم السابع عشر من شهر رمضان من السنة الحادية والأربعين لميلاد المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الموافق السادس من شهر أغسطس سنة ٦١٠ من ميلاد المسيح [١] .

ونزل قول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [٢] .

وانقطع الوحي بعد هذا اللقاء الفريد حتى يزداد شوق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ثم تجدد اللقاء ونزل قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [٣] .

وتتابع الوحي، ونزل قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [٤] .

---

(١) في رأي المحققين من العلماء.
(٢) العلق: ١ ـ ٥ .
(٣) المدثر: ١ ـ ٧ .
(٤) الشعراء: ٢١٤.

فقام رسول الله حتى صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه.

فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد، فاجتمعوا إليه.

فقال: يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد المطلب..

فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟

قالوا: ما جربنا عليك كذبًا.

قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد..

فقال أبو لهب: تبًا لك، أما جمعتنا إلا لهذا؟

ثم قام، فنزلت هذه السورة «تبت يدا أبي لهب وتب».

وتوافد الناس على إسلام الوجه والقلب لله رب العالمين، وبدأت مراحل الجهاد النفسي تتعالى نبضاتها، وحميت حرارة الإيمان في قلوب السابقين، حتى إن عمر بن الخطاب يوم أسلم، قال: فوالذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإيمان..

وأقدمت الدعوة الإسلامية على العبور، فهاجر بعض المسلمين إلى الحبشة عندما أشار الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى ذلك بقوله **«لو خرجتم إلى الحبشة فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق»**.

وأحسن النجاشي استقبال هؤلاء المسلمين وقال لهم: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة.. وأعلن إسلامه.

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يألو جهدًا في تبليغ الدعوة، وحاول بشتى الطرق أن يلقى الناس في أماكن تجمعاتهم ومواسم حجهم وأسواق تجارتهم..

وفي العام العاشر من البعثة توفي أبو طالب عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، والسيدة خديجة حاضنة الإسلام، وهما من هما دفاعًا عن الرسالة والرسول، وألمّ الحزن بقلب سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - حتى سمي هذا العام بعام الحزن.

ولما ضاقت مكة برسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذهب إلى الطائف يعرض دعوته على أهلها عسى أن يجد نصيرًا، فأغروا به سفهاءهم، وصبيانهم يرضخونه بالحجارة حتى دميت قدماه الشريفتان، فرجع إلى مكة مكروبًا مهمومًا، وتوجه إلى الله بدعاء ضارع:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى مَنْ تكلني، إلى بعيد يتجهمني أم عدو ملكته أمري؟! إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك».

وشاء الله تعالى أن يلتقي الرسول - صلى الله عليه وسلم - عقب ذلك برهط من

الخزرج قدموا إلى مكة لأداء الحج، فعرض الرسول عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن فأدرك هؤلاء الرهط صدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وتذكروا أن هذا هو النبي الذي ينتظره أهل الكتاب لأن اليهود في يثرب كانوا يتوعدون أهلها ويقولون: إن نبيًا مبعوث الآن، قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم..

فحاول هؤلاء الرهط من قبيلة الخزرج أن يسبقوا إلى الإسلام، ويفوزوا بشرف النصرة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ،فأسلموا ثم انصرفوا راجعين إلى يثرب.

فلما كان العام المقبل قدم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقيهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند العقبة على أطراف مكة، وبايعوه بيعة العقبة الأولى، فبعث معهم مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين..

فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين، فلما مضى العام وحان موسم الحج عاد مصعب إلى مكة ومعه وفد من الأنصار، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين هما نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو بن عدي..

والتقى بهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالعقبة في ليلة من أوسط أيام التشريق، وبايعوا رسول الله بيعة العقبة الثانية على أن ينصروا رسول الله، ويمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم وأن يستقبلوه في يثرب ويتحملوا البأساء في سبيل دعوته..

وكانت تلك البيعة خاتمة العهد المكي الذي استمر ثلاث عشرة سنة، وبداية للعهد المدني الذي استمر عشر سنين. تأسست فيه الدولة الإسلامية، وقامت كتائب الرحمن ترد العدوان وتدفع الظلم وتؤمن العقيدة.

وبلغ سيدنا محمد الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده، وكان في مجتمع المسلمين النبي الذي يوحى إليه، والإمام الذي يصون الأمة ويرعى شئونها، والقائد الأعلى للجيش، يقود المعارك ويتقدم الجنود، والقاضي الذي يحكم بين الناس فيما شجر بينهم، والمفتي الذي يلجأ الناس إليه في أمور دينهم، ووقائع حياتهم..

وظل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ذلك حتى جاءه اليقين، وكانت آخر كلماته وهو يفارق الدنيا:

- الصلاة، وما ملكت أيمانكم..
- لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد..
- اللهم الرفيق الأعلى..
- مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.. [١]

---

(١) راجع كتابنا «النبوة المحمدية دلائلها وخصائصها» ط . دار الاعتصام.

المؤلف في سطور

دكتور / محمد سيد أحمد المسير

- أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين - جامعة الأزهر.
- عمل أستاذًا مشاركًا، ثم رئيسًا لقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية في كلية التربية - فرع جامعة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة ١٩٨٣ - ١٩٨٧م.
- أعير أستاذًا في كلية الدعوة وأصول الدين - جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٩٩٣ - ١٩٩٨م.
- شارك في عضوية المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف.
- شارك في عضوية جمعية الدراسات الإسلامية بالزمالك.
- يشارك في عضوية الجمعية الفلسفية المصرية.
- يكتب المقالات في المجلات والصحف الإسلامية في مصر والعالم الإسلامي.
- يشارك في البرامج الإذاعية والتليفزيونية لمصر والعالم.
- كان الأول على طلاب الجمهورية في الشهادة الإعدادية عام ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م. من معهد شبين الكوم.
- كان السادس عشر على طلاب الجمهورية في الثانوية الأزهرية عام ١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م، وكانت المرحلة الثانوية يومئذ خمس سنوات.
- حصل على تقدير ممتاز مع مرتبة الشرف في الشهادة العالية من قسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين بالقاهرة عام ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.
- حصل على الدكتوراة بمرتبة الشرف الأولى من جامعة الأزهر عام ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

● شارك في المؤتمرات والملتقيات الفكرية مثل:

- المؤتمر الحادي عشر لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر في رجب ١٤٠٨ هـ.
- ندوة الفقة الإسلامي في سلطنة عمان في شعبان ١٤٠٨ هـ.
- الموسم الثقافي لشهر رمضان في دولة الكويت ١٤٠٩ هـ.
- الندوة القومية لمواجهة الدس الشعوبي في بغداد من ٢٢-٢٤ لشهر جمادى الأولى ١٤١٠هـ.
- المؤتمر الإسلامي العالمي لمناصرة العراق المنعقد في بغداد، في شهر ذي القعدة ١٤١٠ هـ «قبل الغزو».
- المؤتمر القومي الذي نظمه المركز العربي للإعلام بالقاهرة تحت عنوان «الإدمان قضية العصر» من ١٨-٢٠ صفر ١٤١١هـ.

- المؤتمر الإسلامي العالمي لمناقشة أزمة الخليج، الذي نظمته رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة من ٢١-٢٣ صفر ١٤١١ هـ.
- الندوة العالمية لمناقشة حقوق الإنسان بين الإسلام والغرب، في طهران بتاريخ ٩ - ١٢ سبتمبر ١٩٩١م.
- المهرجان الإسلامي العالمي في الكويت للإفراج عن الأسرى والمحتجزين في سجون العراق من ١٩-٢١ يناير ١٩٩٢م.
- الموسم الثقافي لشهر رمضان في دولة الإمارات العربية المتحدة ١٤١٢هـ.
- ندوة الإعلام الإسلامي بين تحديات الواقع وطموحات المستقبل، التي نظمتها مؤسسة «اقرأ» الخيرية، بالتعاون مع جامعة الأزهر في ذي القعدة ١٤١٢هـ - مايو ١٩٩٢ م.
- سافر مع وزير الأوقاف المصري ضمن وفد رسمي لزيارة دول الكومنولث الإسلامية بتاريخ ١٣ - ٢٥ سبتمبر ١٩٩٢ م.
- المؤتمر الثاني عشر لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر من ٢-٥ لشهر جمادى الأولى سنة ١٤١٣ هـ.
- مؤتمر التوجيه الإسلامي للعلوم الذي نظمته رابطة الجامعات الإسلامية بالاشتراك مع جامعة الأزهر سنة ١٤١٣ هـ.
- شارك في لجان الاختيار لجائزة الملك فيصل العالمية.
- الندوة العلمية «في قلب الشرق: قراءة معاصرة لأعمال لوي ماسنيون»، والتي نظمها قسم الفلسفة بكلية الآداب - جامعة القاهرة مع المركز الفرنسي للثقافة والتعاون يومي ١٤ ، ١٥ مارس ١٩٩٩ م.
- المؤتمر الدولي الرابع للفلسفة الإسلامية في كلية دار العلوم - جامعة القاهرة تحت عنوان «الإسلام في عصر العولمة» بتاريخ ١٨، ١٩ من المحرم ١٤٢٠ هـ - ٤، ٥ من مايو ١٩٩٩م.
- ندوة «الفساد الاقتصادي - الواقع المعاصر والحل الإسلامي» التي أقامها مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي بجامعة الأزهر بتاريخ ٢٢ : ٢٣ من مارس ٢٠٠٠م.
- المؤتمر الدولي الخامس للفلسفة الإسلامية في كلية دار العلوم - جامعة القاهرة، تحت عنوان «الإسلام وحوار الحضارات» بتاريخ ٢٧ / ٢٨ من المحرم ١٤٢١ هـ - ٢، ٣ من مايو سنة ٢٠٠٠م.
- المؤتمر الدولي السادس للفلسفة في كلية دار العلوم تحت عنوان «الإسلام ومشروعات النهضة الحديثة» ١ ، ٢/ ١/٤ - ٢٠٠١ م.

كتب للمؤلف

- **في العقيدة:**

١- في نور العقيدة الإسلامية.

٢- أدب الحديث عن الله.

٣- علم التوحيد للشهادة الإعدادية الأزهرية.

٤- التمهيد في دراسة العقيدة الإسلامية.

٥- الإلهيات في العقيدة الإسلامية. «دار الاعتصام».

٦- الشفاعة في الإسلام «مطبعة الكيلاني».

٧- النبوة المحمدية: دلائلها وخصائصها. «دار الاعتصام».

٨ ـ الرسالة والرسل في العقيدة الإسلامية «مكتبة الصفا».

- **في الفلسفة والأخلاق:**

٩- الروح في دراسات المتكلمين والفلاسفة. «دار المعارف».

١٠- المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي وموقف الإسلام منه. «دار المعارف».

١١- قضايا إنسانية في الفكر الديني والفلسفي. «مكتبة الصفا».

١٢- قيم أخلاقية من القرآن والسنة. «مكتبة الصفا».

١٣ ـ قضايا الفكر الإسلامي المعاصر «مكتبة نهضة مصر».

- **في الأديان:**

١٤- المدخل لدراسة الأديان. «دار الندى».

١٥- أصول النصرانية في الميزان. «مكتبة الصفا».

١٦- أوروبا والنصرانية.

١٧- المسيح ورسالته في القرآن. «مكتبة الصفا».

١٨- عبادة الشيطان في البيان القرآني والتاريخ الإنساني. «دار الوفاء».

- **في الفرق الإسلامية:**

١٩- الحوار بين الجماعات الإسلامية.

٢٠- مقدمة في دراسة الفرق الإسلامية «مكتبة النهضة المصرية».

٢١- قضية التكفير في الفكر الإسلامي.

- **في السيرة النبوية والحديث الشريف :**

٢٢- الرسول في رمضان. «مكتبة الصفا».

٢٣- الرسول حول الكعبة. «مكتبة الصفا».

٢٤- الرسول والوحي[1].

٢٥- الرسول وقضايا المجتمع. «المؤسسة العربية الحديثة».

٢٦- الرسول والموافقات. «المؤسسة العربية الحديثة».

٢٧- وعندئذ قال الرسول. «دار المعارف».

٢٨- أيسر البيان في شرح الحكمة النبوية. «دار الندى».

- **في الشريعة الإسلامية :**

٢٩- محاورة تطبيق الشريعة. «المؤسسة العربية الحديثة».

٣٠- نحو دستور إسلامي. «دار الندى».

٣١- أخلاق الأسرة المسلمة. «دار الندى».

٣٢- العبادات في الإسلام «دار الندى».

- **تحقيق مؤلفات فضيلة الدكتور/ سيد أحمد رمضان المسير -رحمه الله- :**

٣٣- السنة مع القرآن . «دار الندى».

٣٤- السنة المطهرة. «المؤسسة العربية الحديثة».

٣٥- إلزام القرآن للماديين والمليين. «المؤسسة العربية الحديثة».

٣٦- دراسات قرآنية « دار الندى».



(١) صدر في طبعة جديدة بعنوان «النبوة المحمدية».

الفهرس